الباب الخامس

التوسع السياسى

* الخلفاء الراشدون
* العصر الأموى (٦٦١ ــ ٧٥٠ م)
* الفتوحات الاسلامية فى الشرق والغرب
* الدولة العباسية (٧٥٠ ــ ١٢٥٨)
* الدولة السلجوقية
* الاسلام فى أسبانيا
* شمال أفريقيا ومصر
* الوضع الجديد بعد الغارة المغولية
* العثمانيون
* فارس بين الانحطاط والازدهار
* سليمان العظيم
* انهيار السلطة العثمانية
* الضغط الروسى

obeikandl.com

* طريق مصر الى الاستقلال
* الرجل المريض عند البوسفور
* مصر على الطـريق البحـرى الانجليزى
* المهدى لعبة صغيرة بين الأحداث الكبرى ٠
* المبـادرة الألمانية لانشـاء الخط الحديدى ٠
* اسـتيلاء الشـباب التركى على الحكم ٠
* الحرب العالمية الأولى ٠
* مصطفى كمال أتاتورك ٠
* نهضة فارس فى عهد الشاه رضا خان ٠
* مصر أمة حرة ٠
* النضـال ضـد وصـاية القوى العظمى ٠
* فلسطين والجامعة العربية ٠
* أمل العالم الاسـلامى فى عودة مجده العالمى القديم ٠

التوسع السياسى

وفى هذا الباب :

١ ـ الخلفاء الراشدون :

* سرد المؤلف فى هذا الباب أحداث تولى الخلفاء الراشدين ، وجهودهم فى التوسع السياسى ، وأثرهم فى تثبيت أركان الدولة داخليا ، وعلاقة الدولة بأهل الكتاب الذين يقيمون فى المجتمع الاسلامى الجديد ، فبدأ بما حدث بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) من مشاورات لتعيين خليفة له ، فذهب الى أن المجتمع الاسلامى فى المدينة لم يتحد اتحادا كليا على الرغم من الجهود التى بذلها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى دعوته لهم الى نبذ العصبية القبلية ، عن طريق ما نزل عليه من الوحى ، وما ضربه لهم من أمثال ـ قولا وفعلا ـ فى مقت هذه العصبية وترغيبه اياهم فى أن يكون الرباط بينهم هو الاسلام ، اذ ظهرت معالم الانقسام الى مهاجرين وأنصار بعد موته مباشرة ، فى محاولة كل فريق اختيار الخليفة منه ، ولكن سرعان ما تداركوا الأمر واتفقوا على أن يكون أبو بكر الصديق هو خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

* كانت مهمة أبى بكر صعبة جدا ، لأنه سيسوس شعبا دون أن تكون له صفة النبوة ، التى لها تأثير كبير فى نفوس الرعية مما يساعد فى سياستها ، فقد كان محمد آخر الأنبياء . ولم تكن مهمته قيادة دينية فقط ، بل كان مسئولا فى جميع مجالات الحياة : دينية كانت ، أو سياسية أو عسكرية ، أو اقتصادية ، أو قضائية . فاختار لنفسه لقب « خليفة » ولا يقصد به خليفة الله ، كما كان معروفا لدى بعض الشعوب آنذاك ، بل خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

* رأت القبائل فى شمال وشرق وجنوب الجزيرة العربية أن الفرصة قد سنحت ـ بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ للتخلص من التبعية للمدينة ، فأعلنت عصيانها ، ورفعت شعارا سياسيا أكثر منه دينيا ، وكان هذا التمرد أحد خطرين واجها أبا بكر فى بداية ولايته ؛ أما الخطر الآخر ، فهو كثرة ظهور أدعياء النبوة فى الجزيرة العربية ،

الأمر الذى هدد الوحدة الاسلامية ، لكن أبا بكر تغلب عليهما كليهما ، فأرسى قواعد الدولة •

* يرى المحللون أن الأسباب التى دفعت الشعب العربى الى القتال خارج الجزيرة العربية ، يمكن أن تنحصر بعد تولى أبى بكر الخلافة فى سببين :

الأول : التزامهم بتنفيذ ما عزم عليه محمد (صلى الله عليه وسلم) من تجريد حملة ضد الدولة البيزنطية ، وهى الحملة التى كانت بقيادة أسامة بن زيد •

الثانى : رغبة الجماهير الفقيرة فى اجتياح منطقة البحر الأبيض المتوسط الغنية بثرواتها • وكان هذا الغرض كامنا فى نفوس العرب من قبل الاسلام ، وقد حيل بينهم وبين تحقيقه بقيام امارتين عازلتين هما الغساسنة فى سوريا ، واللخميين فى الحيرة • ولكن عندما عبرت الجيوش الاسلامية حدود الجزيرة العربية لفتح ما وراءها من أقطار الأرض لم يكن السبب الرئيسى لها اقتصاديا ، بل كان دينيا فى المقام الأول ، فقد كانت الرغبة المسيطرة على نفوس المسلمين فى تحركهم للقتال خارج الجزيرة العربية رغبة دينية ، اذ كان هدفهم تكوين دولة اسلامية ، تدين بالقرآن وتتبع سنة رسول الله ، ولهذا لزم — فى نظرهم — القضاء على مملكتى كسرى ، وقيصر لتحقيق هذا الهدف •

* كانت الظروف مهيأة للقضاء على هاتين المملكتين ، فقد خرجت مملكة كسرى من حربها مع الدولة البيزنطية منهكة القوى ، مفككة الأوصال ، فسقط جنوب منطقة دجلة والفرات فى يد العرب فى أول هجوم شنوه على دولة كسرى ، واستمر الفتح فى عهد الخليفة الثانى : عمر ابن الخطاب — وقد كان رجلا قويا ، وحاكما حازما — الذى وجه حملات الفتح الى الشمال والشرق ، فخضعت المنطقة كلها للمسلمين ، من منطقة دجلة والفرات حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط • ومن العوامل التى ساعدت على سرعة اجتياز الجيوش الاسلامية لهذه المناطق ترحيب السكان بالعرب لأنهم رأوا أنهم سيخلصونهم من حكم البيزنطيين الذى أنهك قواهم بفرض الضرائب الفادحة وبالتعصب الدينى الذى مارسته الكنيسة معهم •

* دخل عمر بن الخطاب مدينة القدس فى عام ٦٣٨ م ووضع حجر الأساس لأول مسجد فى المنطقة ، وواصلت الجيوش زحفها نحو

الشرق فى عهده ؛ فضربت الجيش الفارسى ضربة قاضـــية فى معركة القادسية ؛ وتوغلت فى البلاد حيث استقبلهم الأرمنيون بالترحيب لأنهم كانوا ناقمين على سياسة كسرى .

* كان الاستيلاء على منطقتى سوريا وبلاد ما وراء النهرين بمثابة سهمين أعدا للانطلاق لتنفيذ خطة مرسومة لفتح ما وراءهما ، فقد توغلت الجيوش فى ايران ، كما فتحت مصر فخلصها الجيش الاسلامى من وطأة تحصيل الضرائب الفادحة ، التى فرضها عليهم القيصر لسد نفقات الحرب ، التى دارت بينه وبين الفرس . ومما يجدر ذكره هنا أن المؤلف وصف الدعوى التى تنسب حرق مكتبة الاسكندرية الى العرب بأن لها طابعا أسطوريا ، أى أنها لا تقوم على أدلة كافية .

* يصف المؤلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه « لم يكن قائدا عسكريا ماهرا فقط ، بل كان سياسيا محنكا ، فاليه يرجع الفضـــل فى قيام دولة اسلامية — سياسيا وعسكريا واداريا — على أنقاض الدولتين ، البيزنطية والفارسية ، اذ أصبح النظام الادارى .. الذى وضعه للدولة أساسا لكل ما فتح من أمصار فيما بعد ، ومثالا يحتذيه كل من جاء بعده ؛ فقد سن — على سبيل المثال — قاعدة فى الأرض المستولى عليها صلحا ؛ لم تكن معروفة من قبل . كما نظم العلاقة بين الدولة وبين سكان الأرض المفتوحة ، فتركهم يزرعون أرضهم فى مقابل حصة يؤدونها للدولة ، وتركهم يديرون شئونهم بأنفسهم وكفل لهم حرية كاملة فى ممارسة طقوسهم الدينية ، لدرجة أن القسس كانوا يمثلون مصالح أبناء عقيدتهم لدى الدولة .. و .. و .. الخ .

* قد يبدو التناقض الظاهرى واضحا فى هذه الاجراءات ؛ فالفتح الاسلامى لم يعد الغرض منه حمل الناس على الدخول فى الاسلام ، بل كان الهدف منه اخضاع غير المسلمين للحكم الاسلامى . ولكن هناك سبب واقعى جدا ، وهو أن فتح أقطار العالم يحتاج الى أموال طائلة ، لا يمكن الحصول عليها الا اذا دفع هؤلاء الذين لم يدخلوا الاســـلام من أهل الكتاب فى الأرض المفتوحة ما فرض عليهم من جزية .

* تولى الخلافة بعد عمر : عثمان بن عفان ، فلم يبذل نشاطا فى الفتح مثل ما فعل عمر بن الخطاب ، اذ كرس جهده على تثبيت سلطان الدولة فى الداخل ، فولى أقرباءه المناصب الهامة ، الأمر الذى أثار حفيظة

فريق من المسلمين فقتلوه وهو يقرأ القرآن ، فأرسلت أرملته قميصه الملطخ بالدماء الى قريبه معاوية بن أبى سفيان ، الذى كان واليا على الشام فى ذلك الوقت ، فعادت غريزة الأخذ بالثأر القديمة تطل برأسها فى المجتمع الاسلامى ، اذ لم يستطع بنو أمية ضبط أعصابهم فطالبوا بالأخذ بالثأر من قتلة عثمان بن عفان .

* تولى على بن أبى طالب الخلافة بعد عثمان ، وكان سنه آنذاك خمس وخمسون سنة ، فجاءت توليته متأخرة فى نظر بعض المسلمين ، لأنهم كانوا يرون أنه كان أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان . فوضع شيعته كثيرا من الأحاديث التى تبين فضله عليهم ، ولكن الجماعة لم تجمع على ولايته حتى قتل عثمان ، فبويع بالخلافة وظل فيها من ٦٥٦ حتى ٦٦١ م حتى قتله أحد الخوارج الذين انشقوا على طاعته .

* ترك على قتلة عثمان دون محاكمة ، فثار عليه بنو أمية بقيادة معاوية ، كما كان هناك فريق آخر خرج عن طاعته وأعلن الحرب عليه ، وكان هذا الفريق بقيادة عائشة الا أنه تخلص منه فى معركة الجمل ، أما فريق معاوية فقد لتقى به فى معركة صفين .. ويمضى المؤلف فى سرد أحداث النزاع بين على ومعاوية . وبين على والخوارج ، وقتل على ، وتنازل الحسن ابنه عن الخلافة لمعاوية .. الخ . ثم يقول : « وأخيرا أخضع معاوية جميع أقطار الدولة الاسلامية لحكمه ، واختار دمشق عاصمة له ، لأن المدينة كانت بعيدة عن مسرح الأحداث ، ولأن دمشق كانت أكثر أمنا بالنسبة له ، فقد عضدت سلطانه .. وهكذا : أصبحت الخلافة الاسلامية ملكا عضودا يرثه الأبناء عن الآباء » ..

*** تخبطت آراء الباحثين الأوروبيين فى تعليل الفتح الاسلامى ، فبينما يقول فريق : « انه كان اعتداء وغزوا للسيطرة على الموارد المالية للأقطار المفتوحة .. ،**

*** يرى آخر : أنه كان نشرا للاسلام بالقوة .**

*** أما مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » .. فيذهب الى أنه لم يكن لحمل الناس على الدخول فى الاسلام : بل كان الهدف منه سيطرة الاسلام على العالم ولما كانت الجيوش الاسلامية فى حاجة الى أموال طائلة ، رأى المسلمون عدم اجبار أهل الكتاب على اعتناق الاسلام ، والاكتفاء بتحصيل الجزية منهم ، ليضمنوا عائدا يساعد الجيوش على مواصلة فتحها لمناطق العالم .**

* والسبب الرئيسى فى هذا التخبط هو الجو الذى نشأوا فيه ، ونوع الثقافة التى تربوا عليها ، ذلك أن الجو الأوروبى العام ينظر الى الاسلام نظرة عداوة وتربص ٠

* من جراء الأحداث التى وقعت بين المسلمين فى الأندلس ، وبين الامارات المسيحية المجاورة لهم منذ الفتح الاسلامى لهذه المنطقة الأوروبية من عام ٧١١ م حتى خروجهم منها فى عام ١٤٩٢ ٠

* ونتيجة لما ترسب فى نفوس الأوروبيين عامة من حقد وكراهية للاسلام والمسلمين ذلك الحقد الذى غرسته وقائع الحروب الصليبية فيهم ، فلقنوه لأبنائهم جيلا بعد جيل ٠

* ولهذا فهم ينظرون — عند تحليلهم للأحداث الاسلامية — الى الموضوع من زاوية العداوة ، فيدفعهم هذا الموقف الى تصعيد كل ما من شأنه تصوير المسلمين على أنهم جفاة ، غلاظ ، لا يعرفون الا السيطرة وحب المال والجاه ٠

* ونسى هؤلاء — أو اغضوا أعينهم عنه عمدا ، وأخفوه عن قرائهم — أن المسلمين لم يفتحوا لأجل الغزو والسيطرة — وان ظهر من المسلمين أحيانا خلاف ذلك ، فهو مخالف لروح الاسلام ، وبعيد أيضا عن الطابع الاسلامى العام الذى تحلى به المسلمون فى جهادهم — بدليل أن أهل الكتاب عاشوا فى الدولة الاسلامية أحرارا فى عبادتهم مستقلين فى ادارة شئونهم الخاصة ، لم يعتد عليهم أحد فى مال ولا عرض ، ولم تقيد الدولة حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ، فنعموا بحياة لم يروها أثناء خضوعهم لاخوانهم فى العقيدة ٠

* كيف يكون الفتح وسيلة للسيطرة على الموارد المالية وقد حرم الاسلام أكل أموال الناس بالباطل ، والتزم المسلمون بهذا التحريم ، فلم ينهبوا ولم يغتصبوا سكان الأرض المفتوحة ، مثل ما تفعل الجيوش فى عصر الحضارة الأوروبية والمدنية ٠

* أما دعوى أن الفتح كان وسيلة لنشر الاسلام بالقوة ، فقد رددنا عليها فيما سبق من هذا البحث ، وتبقى دعوى مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » وهى : أن المسلمين تركوا أهل الكتاب ، فلم يجبروهم على الدخول فى الاسلام ، ليضمنوا موردا ماليا من فرض

الجزية عليهم يساعد فى نفقات الجيوش الاسلامية ، لتواصل فتح أقطار أخرى ٠

* والرد على هذه الدعوى يكمن فى الاجابة على سؤالين هما :

هل كانت الدولة الاسلامية تعانى آنذاك من نقص فى الأموال ؟

وهل كانت الأموال التى تحصل من الجزية تكفى للخدمات العامة التى تقوم بها الدولة للسكان ؟

* لم تكن الدولة الاسلامية فى أزمة مالية ، بل كانت فى رخاء ليس له حدود ، لأن الأموال فاضت على المسلمين فى هذا العهد من كل صوب، فتحت لهم كنوز كسرى وتدفقت عليهم الأموال من خراج وفىء وغنيمة ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠ الخ لدرجة أن المؤرخين يجمعون على أن خزائن الدولة كانت مليئة بالخيرات فرتبت للجند رواتب سخية ، ومنحت كثيرا من المسلمين عطاءات ثابتة من بيت المـــال ، ومع ذلك لم ينضب ما عندها من « أرصدة » ، بل بقى فى بيت المـــال فائضا ، فكيف يقال :

ان المسلمين احتاجوا الى أموال الجزية للصرف على جيوش الفتح ؟

هل كانت المبالغ التى حصلت من الجزية كافية لتغطية بند الخدمات العامة ؟

* لا لم تكن كافية ٠٠ اذن ، فالمحصل منها كان يصرف أكثر منه على خدمات كان يتمتع بها أهل الكتاب ، فكيف يقال : انها كانت موردا يساعد على نفقات الجيش لتواصل الفتح ؟ !!

* لم يكن الغرض من الفتح الاسلامى سوى تمكين الدعاة من توصيل كلمة الاسلام الى هذه الشعوب ، فتختار بنفسها ـــ دون ضغط عليها من حـــكام لا يؤمنون بالله ـــ طريق الحق ، فان هداها الله الى الاسلام ، اعتنقته دون خوف من أحد ، وان اختارت البقاء على ما هى عليه لن يجبرها أحد ، لأن واجب المسلمين تبليغ الدعوة فقط ٠

« وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد »(١) ٠

* * *

(١) آل عمران : ٢٠

٢ ــ العصر الأموى (٦٦١ ــ ٧٥٠ م) :

* تبوأت أقوى قبيلة فى قريش مقعد الخلافة ، وأخــذ معاوية البيعة لابنه يزيد فى حياته ، فبدا الوضع كما لو كان الزمن قد عاد أدراجه ، حيث خول الانتساب لقبيلة ذات سطوة وسلطان ، الحق فى تصريف مقاليد شئون الحكم ، والتحكم فى مصائر الناس .

* تصرف الأمويون فى الحكم بالأسلوب العربى القديم ، فأحاطوا الخلفاء بهالة من العظمة والتقديس ، كما انفرد الخليفة باتخاذ القرارات ، وان خالفت رأى مستشاريه ، أو أنكرها من خول لهم وضعهم الاجتماعى القدرة على نصيحة الخليفة . وكانت القرارات التى تصدر من الخليفة تعلن فى المساجد على أنها أوامر لا تعارض ، ويجب تنفيذها فور سماعها .

* كذلك أهملت الدعوة فى مجال اقناع أهل الكتاب باعتنــاق الاسلام ، فتركوهم على دينهم واكتفوا منهم بدفع الجزية . وفى سوريا توقفت الأعمال فى اقامة مستوطنات عسكرية تكون عازلة بين المسلمين وأهل البلاد ، وترك العرب المسيحيون يمارسون طقوسهم الدينية حيث شاءوا ، الى أن وصل الأمر الى أن المسيحيين والمسلمين كانوا يتناوبون ــ فى بعض الأنحاء ــ اقامة شعائرهم فى مكان واحــد . وكان باب الخليفة مفتوحا للمسيحيين يقصدونه للتشاور فى جميع المجالات وخاصة فى النواحى المالية . وظلت الادارة فى أيدى أهل البلاد ، كما كانت فى أيام حكم الدولة البيزنطية ، واكتفى المسلمون بتولى المناصب القيادية .

* ظلت ادارة الدولة تستعمل اللغة اليونانية حتى عهد عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ ــ ٧٥٠ م) فأمر بتعريبها كما سك النقود باللغة العربية . وأدخل تعديلات فى نظام الضرائب .

* اندلعت معارضة الأمويين والثورة عليهم فى بادىء الأمر من المدينة ، وكانت انتفاضتهم تقوم على أسس دينية ، لأن تحول الدولة الى طابع دنيوى أثار حفيظة أهل المدينة ، الذين رأوا فى سلوك الخلفاء تعارضا واضحا لمــا كان عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ومناقضا لمــا أمر به ، فثاروا على الخليفة ، ولكن الأمويين أخمدوا الثورة بالقوة .. ثم يمضى المؤلف فى حديثه عن الانتفاضات والثورات ضد الحكم الأموى والمعارك التى دارت بين المعارضين وقوات الخليفة . حتى نجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية فى عام ٧٥٠ م .

* * *

٣ ــ الفتوحات الاسلامية فى الشرق والغرب :

* ذكر المؤلف فى تناوله لأحداث الفتح الاسلامى لشمال أفريقيا أن المسلمين أتموا فتح المنطقة فى عام ٦٩٧ م ، ثم عبروا البحر الى أسبانيا فى عام ٧١١ م بقيادة طارق بن زياد ، فقضوا على مملكة القوطيين ، وبقضاء المسلمين على هذه المملكة تخلص السكان من نيرهم واستعبادهم وتنفس اليهود ــ المقيمون هناك ــ الصعداء ، لأنهم تخلصوا من الاضطهاد الدينى . فتحرروا من الضغط الذى مارسه القوطيون عليهم ليخرجوهم من اليهودية الى النصرانية .

* ولم يتوقف الجيش الاسلامى عن التوغل فى أوروبا ، فواصل زحفه نحو الشمال ، ولا يعلم أحد شيئا عن هدف المسلمين بهذا التوغل : هل كان هدفهم الاستيلاء على كنوز الكنيسة ؟

* أم أنهم أرادوا اختراق أوروبا ليصلوا الى الشام عن طريق القسطنطينية ؟

* لكنهم لم يحسنوا تقدير قوة الأوروبيين ، فانهزموا فى معركة « بواتييه » أمام « كارل مارتن » الذى أنقذ أوروبا من الخطر الاسلامى . ثم فصل القول فى الخلاف الذى وقع بين المسلمين فى البلاد المفتوحة ، واعلان بعض الأمراء الاستقلال فى مقاطعاتهم ومحاربة بعضهم البعض الآخر .

* وفى الجانب الآخر واصلت الجيوش الاسلامية زحفها نحو الشرق ، فاستولوا على البنجاب فى عام ٧١١ م ثم اتجهت فيما بعد صوب الصين ، وتوغلت فى داخل آسيا غير أن الدعاة سبقوا الجيش الى تلك المناطق .

* ومن المدهش حقا أنه بينما كانت الجيوش الاسلامية توالى فتحها لمناطق العالم قامت نهضة حضارية فى المناطق العربية ، وتعتبر الانجازات الحضارية فى العهد الأموى منارات وضاءة فى التاريخ الاسلامى ، سواء فى مجال الاقتصاد الزراعى حيث شقت القنوات وأقيمت الجسور .. و .. و .. الخ ، أو فى الفن المعمارى ، حيث شيدت المساجد وزينت بالفسيفساء الذى يعتبر آية فى الفن المعمارى ، وأنشئت الحمامات العامة على أحدث طراز .. الخ .

* وفى عرضه لأسباب انهيار الدولة الأموية يقول :

« انغمس الخلفاء فى الترف والحياة المدنية ، فصاروا يفهمون فى الخمر والنساء والفن أكثر من فهمهم لواجباتهم كخلفاء ، فلم يبق لديهم أى صفة من صفات خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى يدعونها ، فحفروا قبورهم بأنفسهم » .

* ثم تناول أحداث تصاعد المعارضة ضد الدولة الأموية .. والتفاف الشعوب غير العربية — وعلى الأخص الشعب الفارسى — حول المطالبين بالخلافة من آل البيت الى أن سقطت دولة بنى أمية فى عام ٧٥٠ م .

* أوقفت معركة « بواتييه » فى سهول فرنسا زحف المسلمين على أوروبا ، وردتهم عن مواصلة فتح أقطارها . ويختلف الباحثون فى تصوير أحداث هذه المعركة ، وتقييم نتائجها بالنسبة لأوروبا ، فبينما نجد المستشرقين يشيدون بـ « كارل مارتن » فى قتاله وبسالته ضد المسلمين ، ويرجعون انتصاره عليهم الى طبيعة عقليته العسكرية ، والى تفوق قدرة جنوده على جنود المسلمين فى ميدان القتال ، يجد الباحث المدقق أن فوز « كارل مارتن » يرجع الى الداء الذى أصيب به المسلمون بعد فتحهم للأندلس مباشرة ألا وهو :

تكالبهم على الغنائم .

والنزعة العصبية التى شاعت بينهم . ففرقتهم الى عرب وبربر .

* ذلك أنه عندما التقى الجيشان استمرت المعارك بينهما سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ كل جيش فيها بمركزه ، وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معارك عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادلا حتى دخول الليل ، واستأنفا القتال فى اليوم التالى وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الاعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث حينئذ أن افتتح الفرنج ثغرة الى معسكر الغنائم الاسلامى فارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الاسلامية بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى أيدى العدو ، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم . وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبد الرحمن الغافقى — قائد المسلمين — أن يعيد النظام وأن يهدىء روع الجند وبينما هو

يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها اذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته فسقط قتيلا من فوق جواده ، فعم الذعر والاضطراب فى الجيش الاسلامى واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم ، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل .

* وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامى ، واختلف الرأى ... وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع ، ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب ، وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا فى جوف الليل ، وتحت جنح الظلام ، تاركين أثقالهم ، ومعظم أسلابهم غنما للعدو .

* ومن الأسباب التى عاقت الجيش الاسلامى عن احراز نصر حاسم فى تلك الموقعة حالة القلق التى أصابته ، بسبب الشقاق الذى كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكان الكثير منهم يتوق الى الانسحاب مؤثرا النجاة بغنائمه الكثيرة ، ذلك أن المسلمين قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها ، وديارها الفنية ، وأثقلوا بمالا بقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى .

* فكانت هذه الأثقال النفسية تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع ، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تغيير سير المعركة .

* أما حديث المؤرخين الأوروبيين عن نتائج هذه المعركة ، فتظهر روح الصليبية واضحة فى كل سطر كتبوه فيها ، فعلى سبيل المثال يقول « السير ادوارد كريزى » :

« أن النصر العظيم الذى ناله « كارل مارتن » على العرب سنة ٧٣٢ م وضع حدا حاسما لفتوح العرب فى غرب أوروبا ، وأنقذ النصرانية من الاسلام » .

* ويقول « ادوارد جيبون » متصورا النتائج ، لو انتصر العرب فى معركة « بواتييه » :

« .. بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد « اكسفورد » ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة » .

ويقول :

« ان هذه المعركة أنقذت آباءنا البريطانيين ، وجيراننا الغالين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال روما ، وأخرت استعباد « قسطنطينية » وشـــدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرقة والفشل »(١) .

* ونسى هؤلاء — أو تناسوا أن أوروبا — والعالم كله — خسرت كثيرا من جراء هذه المعركة ، فلو واصل المسلمون فتح أقطارها :

ما نصبت فيها محاكم التفتيش التى راح ضحيتها ألوف الأبرياء .

وما تأخرت نهضتها العلمية قرونا بسبب تحكم الكنيسة ، وتحريمها الاشتغال بعلوم الطبيعة — لم يتقدم الأوروبيون فى هذا المجال الا بعد أن تخلصوا من سيطرة الكنيسة — لأن الاسلام لو دخلها فى ذلك التاريخ لمنحها الحرية الكاملة فى البحث فى كل مجالات الحياة .

وما استعبدت المـادية الوثنية الانسان اليوم ، لأن أوروبا حين تخلصت من الكنيسة ، خلعت عن نفسها كل الأردية الروحية ، وانطلقت فى مجال المـادية ، فانغمست فيها دون ضوابط ، وغاصت فى أعماقها دون حدود ، فتحكمت فى القوة المـادية . واستخدمتها لتحصـل على المزيد فأخضعت العالم لها ، وسيطرت على مجرى الأمور فى جميع مناطقه فخضعت لها المجتمعات كرها ، أو قلدتهـا فى حياتها جريا وراء دعاوى التقدم والمدنية فصـار العالم كله منغمسا فى مادية جاهلية ، تاركا وراءه المبادىء الروحية التى جاء بها الوحى ، أو مرددا لها باللسان دون أن يكون لها أثر فى واقع المجتمع .

هذه هى احدى نتائج معركة « بواتييه » فلو أنصف الباحثون فى تقييم هذه المعركة لرأوها واضحة أمام أعينهم ، اما عندمـا يلقى التعصب الغشاوة على ابصارهم ويخيم الحقد على قلوبهم وسمعهم ، رأيتهم يتخبطون فى الحديث عنها وعن نتائجها متوهمين ان « كارل مارتن » قد أنقذهم ، بينما الواقع يؤكد أنه منع عنهم خيرا كبيرا وكان سببا — وان كان غير مباشر — فى بعض ما تعانى منه البشرية اليوم .

* * *

(١) بين الاسلام والمسيحية ص ٢٣ — ٢٥

٤ — الدولة العباسية (٧٥٠ — ١٢٥٨ م) :

* بدأت الدولة العباسية حقبة جديدة فى التاريخ الاسلامى ، فقد ذابت الدولة ذات الطابع العربى ، وتحولت الى مملكة ذات طابع عالمى ، حيث اندمجت فيها تدريجيا كل الأجناس ، وتساوى فى الحقوق كل المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، كما أصبحت السلطة فى يد الفارسيين ، فحلوا محل القبائل المكية فى جميع المجالات سواء كانت دينية أو دنيوية . وعن طريقهم دخل كثير من التقاليد الفارسية القديمة الى بلاط الخلفاء ، وانتشرت فى جميع أجهزة الدولة . ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الدولة بهرت لعدم بقوتها ونهضتها ، كما فرضت سيطرتها على جميع المناطق ، فكانت تخمد ثورات العلويين بتوجيه الضربات القاضية لها .

* تحدث المؤلف عن أحداث قيام الدولة العباسية ، وجهود العباس وأخيه المنصور من بعده فى بناء الدولة ، وتشييد المبانى والمساجد فى بغداد ، كما تناول النهضة التشريعية مبينا جهود المدارس الفقهية الأربعة فى هذا المجال ، وذكر أن عهد المهدى تميز بتعقب المذاهب الفارسية القديمة ، التى كانت تستهدف القضاء على الاسلام ، ولم تشفع عنده أى علاقة فى انزال العقاب بمن يدين بهذه المذاهب فعلى الرغم من أنه كان يحب الشعر والغناء ، فقد راح ضحية هذه الحملة شاعران فارسيان كانا من أقرب المقربين اليه .

* أخذ حديثه عن هارون الرشيد مساحة كبيرة من هذا الباب ، حيث ذكر أن شهرته طبقت الآفاق — فعرفه الصغير والكبير عن طريق ما ورد عنه فى قصص ألف ليلة وليلة — لأن قوة الدولة وصلت ذروتها فى عصره ، وتبادل السفارة والهدايا مع كارل الأكبر ، رجل أوروبا الأول فى ذلك الوقت .

* عرف هارون الرشيد بحبه للعدل والرحمة . كما اشتهر عنه تذوقه للأدب والشعر والغناء ، ولهذا جمع بلاطه كثيرا من العلماء والشعراء والمغنيين ، ولذا وجب على المؤرخين حين يتعرضون لسيرته — أن يتناولوا ناحيتين فى شخصيته :

احداهما : حبه للهو والغناء والشعر .

والأخرى : ميله للتدين والصلاح والتقوى ، فقد كان يحج كل

عامين ، ويؤدى الصلاة فى خشوع تام ، ويعطف على الفقراء والمساكين .

* امتاز هارون الرشيد بفكر ثاقب وعقلية جبارة ، ولذا فقد كان قاضيا منصفا وذا دراية وأسعة بشئون الدولة ، بالاضافة الى ما كان يتميز به من هيبة وسلطان ، وضح أثرهما عندما كان يقود الجيوش بنفسه ، الا أنه ترك الأمر فى الشئون السياسية والادارية للبرامكة ، فصالوا فيهما وجالوا ، ووصلوا الى حد أثار عليهم حفيظة الخليفة ، فتكفل بهم ، ويمضى المؤلف فى حديثه عن نكبة البرامكة ، محللا الأسباب التى يمكن أن تكون السبب فى غدر الخليفة بهم ، ولكنه لم يرجح واحدا منها ، ثم يذهب الى أن نجم الخليفة قد أفل بعد نكبة البرامكة ، واختتم حياته بالحملة التى وجهها الى الدولة البيزنطية لاجبار قيصرها على مواصلة دفع ما التزم بتأديته الى الدولة الاسلامية وكانت آخر حملاته تلك التى وجهها ضد الثوار فى خراسان ، وأشرك فيها ابناه : الأمين والمأمون ، الا أنه مات قبل الانتهاء من اخمادها . وكانت وفاته فى عام ٨٠٩ م .

* كانت الدولة مهددة بالانهيار أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، ولكن انتصار المأمون أنقذها ، اذ سار على طريق والده ، فقاد نهضة كبرى فى جميع المجالات ... فازدهرت العلوم والمعارف ، وخاصة فى مجالى الطب والرياضة ، حيث ترجمت أمهات الكتب الى اللغة العربية ، وأنشىء بيت الحكمة ، وأقيم مرصدان فلكيان ، أحدهما فى بغداد ، والآخر فى دمشق ، وظلت نظريات الفضاء التى توصل اليها العلماء فى عصره أساسا يعتمد عليها الباحثون فى أوروبا حتى عصر « كوبرنيك »(١) .. ثم تحدث المؤلف عن :

نشاط المأمون ضد العلويين ، ومحاولة التصالح معهم بتعيين على ابن موسى وليا للعهد .

ومحاولة قائده طاهر الاستقلال بحكم خراسان بعد نجاحه فى اخماد ثورة الخوارج بها .

واخماد ثورة الأقباط فى مصر .

ومعاركه مع الدولة البيزنطية من عام ٨٣٠ حتى ٨٣٣ م .

---

(١) « كوبرنيك » (١٤٧٣ — ١٥٤٣) فلكى بولونى برهن على دوران الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس .

كما فصل القول فى وضع الدولة بعد المأمون وسيرة الخلفاء بعده ، وتسلط الاتراك على مقاليد الأمور فى بلاط الخلفاء ، مما أضعف هيبة الدولة ، وشجع الولاة على اعلان استقلالهم ، فتكونت دويلات كان لبعضها دور فى تسيير مجرى الأحداث فى المنطقة الاسلامية فقد قامت دولة الحمدانيين وفرضو سيطرتهم على بلاد ما وراء النهرين ، كما فتحوا حلب ، ودخلوا فى معارك ضد الدولة البيزنطية ، واستمر فى سرده لمعاركهم حتى وصل الى نهية دولتهم على أيدى الفاطميين .

* ودولة البويهيين التى أسسها أبو شجاع بويه فى فارس وحكمت من ٩٣٢ حتى ١٠٥٥ م فقد استولى أبناؤه على والحسن وأحمد على أصفهان وشيراز وكرمان وبغداد ولقبوا بلقب معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة وأصبح أمير المؤمنين على عهدهم ألعوبة فى أيديهم ، ويستمر حديثه عنهم حتى نهايتهم على يد طغرل السلطان السلجوقى فى عام ١٠٥٥ م ثم يعقب على ذلك فيقول :

« لم يكن البويهيون أبطالا فى ميدان القتال فقط ، بل كان عندهم أيضا اهتمام بالحضارة . فقد جعل عضد الدولة أثناء حكمه (٩٤٩ — ٩٨٣ م) — مدينة شيراز بحيث صارت أجمل مدينة فى المملكة الاسلامية وأنفق كثيرا من الأموال لتحسين مدن أخرى وعلى رأسها بغداد .

* * *

٥ — الدولة السلجوقية :

أقامها أمراء تركمان نشأوا فى بخارى ، وبدأ نفوذهم يزداد تدريجيا فغزوا ايران فى ١٠٣٩ م والعراق فى عام ١٠٤٣ م وقضى « طغرل »(١) على البويهيين فى بغداد عام ١٠٥٥ م فسمى نفسه « سلطان وملك الشرق والغرب » بدأ نجم الدولة السلجوقية يلمع فى عهده ، اذ لم تركز الدولة على النواحى العسكرية والسياسية فقط ، بل اهتمت أيضا بالعلم والفن — فبلغت ذروتها فى عهد « ملكشاه » (١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) حيث اعتنى وزيره نظام الملك بالمؤسسات الثقافية

---

(١) « طغرل بك » (ركن الدولة أبو طالب) قائد سلجوقى مؤسس السلالة السلجوقية قضى على البويهيين ودخل بغداد (١٠٥٥ م) فخلع عليه الخليفة القائم العباسى (١٠٣١ — ١٠٧٥ م) لقب السلطان وملك الشرق والغرب ، قهر البساسيرى الذى احتل بغداد وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر ، وأعاد الخليفة العباسى (١٠٦٠ م) .

فأسس « نظامية » نيسابور وبغداد ، فازدهرت العلوم الرياضية والفلسفية والشعر ، كما اهتم بالنواحى المعمارية فى المدن وخاصة بغداد •• ثم مضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة السلجوقية ونشاطها الحربى :

ضد الثائرين ، وضد بعضهم البعض فى ميدان الصراع على السلطة ، وضد الصليبيين •• الخ •• الى أن انتهت شهرتهم بظهور المنغوليين ، ففى القرن الثالث عشر ظهر جنكيز خان ، فهدد أركان الدولة جميعها فيما بين الصين والبحر الأسود ، اذ زحف نحو الغرب مبيدا كل المدن فى طريقه ، مخربا كل ما قابله من مظاهر الحضارة والمدنية ، ففى كل مكان تقريبا أكلت النيران كل ما كانت تملكه الدولة الاسلامية من كنوز علمية وحضارية • ولما مات « جنكيز خان » واصل حفيده « هولاكو » زحفه نحو بغداد فاستولى عليها فى عام ١٢٥٨ م ، وأعدم آخر خليفة عباسى ، كما أعدم كل أفراد أسرته وبذلك انتهت الدولة العباسية •

* * *

٦ — الاسلام فى أسبانيا :

* اذا تأمل المرء الرقعة الواسعة للدولة الاسلامية فى القرون الوسطى ، فان أول ما يبدو له فى كثرة شعوبها المتعددة الأجناس والألوان وفى تغلبها على الدسائس السياسية المتنوعة الاتجاهات ، وفى سيطرتها على مجرى الأمور التى تتنازعها المصالح الشخصية ، أن بقاءها لم يكن أمرا عاديا ، بل يبدو كما لو كانت مؤيدة بمعجزة ساعدتها على البقاء طويلا ، رغم الضغوط الداخلية ، والتهديدات الخارجية ، ومن المعجزات التى صاحبت هذه الدولة أيضا أنه على الرغم من انهيار نظامها السياسى فقد انتصرت العقيدة الاسلامية فى كل الميادين انتصارا لا نظير له مع الأديان الأخرى •

* وصل الاسلام الى الأندلس بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) بثمانين عاما ، أى فى عام ٧١١ م • ذلك التاريخ الذى لم ينسه الأوروبيون • فالفتح الاسلامى للأندلس تم فى عهد الأمويين ، وعندما قضى العباسيون عليهم هرب أحد أفراد الأسرة الى الأندلس وأسس دولة مستقلة عن مركز الخلافة فى الشرق •• ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة الأموية فى الأندلس وصراعها مع الامارات المسيحية التى تكونت فى الشمال ، واستمرار نشاط الأمويين الحربى ثلاثة قرون ضد الثائرين

على الدولة من مسيحيين ويهود وأمراء طمعوا فى اغتصاب السلطة ؛ كما تصدوا للفاطميين الذين أقاموا دولة فى شمال أفريقيا ؛ وهددوا امارة قرطبة • لكنهم ما لبثو أن اتجهوا الى مصر ••• ثم يتحدث عن دول الطوائف ؛ ومعركة الزلاقة ، ونجدة المرابطين للمسلمين فى هذه المعركة ؛ وعن الصراع الذى قام بين المسيحيين والأمراء ؛ وامتداده بفضل مساعدة بنى مرين لهم : لكنهم حين ضعفوا عن تقديم هذه المساعدة انتهى الصراع باستيلاء « فرديناند » ملك « أرجوان » و « ايزابيلا » ملكة « قشتالة » على غرناطة آخر معقل اسلامى فى الأندلس •

* * *

٧ — شمال أفريقيا ومصر :

أسس الفاطميون دولة فى شمال أفريقيا فى عام ٩٠٨ م ؛ والمعروف أنهم كانوا يرفضون سلطة العباسيين ويدعون أنهم أحق بالخلافة على جميع أقطار العالم الاسلامى منهم • استطاع الفاطميون فى عصر ازدهار دولتهم أن يبسطوا سلطانهم من مصر على كل شمال أفريقيا ؛ وجزيرة صقلية ؛ وفى بعض الأحيان على سوريا ، كما هدد أتباعهم بغداد لمدة عام • فاعتقدوا أنهم وصلوا الى هدفهم ، وهو السيطرة على جميع العالم الاسلامى ؛ لكن سرعان ما انهار سلطانهم بعد ازدياد نفوذ العسكريين فى دولتهم — بالضبط كما حدث فى الدولة العباسية — حتى أصبح الخلفاء ألعوبة فى أيديهم •

* كانت نهايتهم على يد صلاح الدين الأيوبى ؛ الذى اشتهر بمعاركه ضد الصليبيين ؛ فقد قضى على دولتهم فى مصر فى عام ١١٧١ م ؛ كما حقق نصرا ساحقا على الصليبيين فى عام ١١٨٧ م وعقد معاهدة صلح مع شارل قلب الأسد فى عام ١١٩٢ م ثم لم يلبث أن مات بعدها بعام واحد ••• ويمضى المؤلف فى حديثه عن الدولة الأيوبية وصراع المماليك على السلطة ؛ وجهودهم فى قتال الصليبيين ، وانتصارهم عليهم فى موقعة عين جالوت ؛ ونسير معه فى سرده لأحداث المماليك حتى الغزو التركى فى عام ١٥١٧ م ثم يختتم الباب بقوله :

* « أصبحت الدولة المملوكية ، بعد سقوط بغداد مركزا للحضارة العربية الاسلامية فساعدها هذا — بالاضافة الى وضع الخليفة العباسى صوريا على رأسها — على تمكين سلطان المماليك وازدياد نفوذهم وهيبتهم • ونظل نتأثيرهم واضحا فى السياسة والادارة فى أيام الصولجان

العثمانى على مصر ؛ ولم تنته مشاركتهم فى تسيير أمور الدولة الا فى بداية القرن التاسع عشر •

* * *

٨ ــ الوضع الجديد بعد الغارة المغولية :

* دمرت الغارة المغولية كل ما اجتاحته من بلاد العالم الاسلامى تدميرا شاملا وخاصة بخارى وسمرقند وبغداد ، كما تسبب الاهمال الادارى فى انهيار نظام الرى البديع فى العراق ، فتكبدت الدولة خسائر فادحة ، وعانت سوريا كثيرا من جراء ما ارتكبه المغوليون من سلب ونهب لثرواتها ، كذلك الأناضول ــ مركز المنطقة التركية ــ وقع تحت سيطرة الدولة المغولية ما يقرب من سبعين عاما •• ثم يمضى المؤلف فى سرد الأحداث التى وقعت فى العالم الاسلامى بعد الغارة المغولية ــ بما فيها دخول المغوليين الاسلام ــ مبينا الجهود التى بذلها الحكام لاستعادة مجدهم وسلطانهم •

* انقسم العالم الاسلامى بعد الغارة المغولية الى منطقتين :

الأولى : تمركزت فى ايران وامتد سلطانها نحو الغرب عبر الأناضول حتى حدود ــ المناطق الأوروبية ، ونحو الشرق حتى الهند ، واقتصر استعمال اللغة العربية فى هذه المنطقة على الدين وعلومه ، أما فى المجالات الأخرى فقد حلت اللغة الفارسية محلها •

الثانية : المنطقة العربية ، وتوزيع النفوذ فيها بين العراق ومصر ، التى امتد تأثيرها الثقافى فشمل شمال ووسط أفريقيا •

* وقعت المنطقتين سياسيا تحت تسلط الأتراك والمغوليين ، وكان الدين هو الرباط الوحيد بينهما ، لكن فى صورته الصوفية ، التى ظهرت فى أول الأمر فى عام ٧٠٠ م لكن تعقبها كل من السنيين والشيعيين واتهم بعض رجالها بالزندقة •• ثم ذكر المؤلف فى معرض حديثه عن الأفكار الصوفية أن الغزالى (١٠٥٨ ــ ١١١١ م) ــ وهو من أشهر علماء السنة ــ هو الذى مزجها بالمذهب السلفى ، مما جعل الصوفيين يتبؤون فيما بعد مكانا مرموقا عند المسلمين • ثم يختم الباب بقوله : « اقترب المذهب السنى من الصوفية بعد الغارة المغولية كثيرا لدرجة أن الصوفيين كانوا فى كثير من الأحوال يمثلون الاتجاه الدينى الرسمى ، على الرغم من أنهم لم يغيروا أساليب طقوسهم الصوفية • فمنذ القرن الثالث عشر الميلادى والناس ينظرون الى الدرويش على أنه نموذج للحياة الدينية فى الاسلام • ومما يحمد للصوفية أن الوحدة الدينية ظلت متماسكة

بفضل جهودهم كما كان لهم تأثير فى بقاء المسلم متمسكا بعقيدته ، اذ انتشرت أفكارهم فى المجتمع فى عهد الضعف والانحلال ، ثم صيغت رسميا فى أول عمل سياسى للدولة العثمانية •

* * *

٩ ــ العثمـانيون :

* حول السلجوقيون شرق ووسط الأناضول الى الاسلام ، وعندما شن المغوليون غارتهم كانت هذه المنطقة فى عصرها الذهبى ، فاستمر السلجوقيون ــ كولاة خاضعين للسلطة المغولية ــ فى الاحتفاظ بوضعهم حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادى • ثم استولى الدراويش والمغامرون على السلطة السياسية والدينية • وساعدهم فى ذلك الأتراك الرحل الذين فروا من أمام الغزو المغولى •

* استطاع أحد هؤلاء المغامرين ــ ويدعى عثمان ــ أن يشن حربا على المناطق المسيحية المجاورة ، استمرت من ١٢٩٩ ــ ١٣٢٦ م ••• ومضى المؤلف فى سرد أخبار خلفائه وحروبهم فى أوروبا من عام ١٣٥٤ م حينما عبروا مضيق الدردنيل حتى عهد مراد الثانى (١٤٢١ ــ ١٤٥١ م) الذى قاد حروبا مظفرة ضد المجر وبولندا والصرب واليونان ، ثم تناول الوضع الداخلى للدولة وظهور الاقطاع ، وفساد الحياة السياسية ، واضطرار السلاطين ــ عندما تبين لهم عدم قدرة السلطة المركزية على حكم البلاد لاتساعها ــ الى الاستعانة بالمرتزقة ففشت الرشوة بين رجال الدولة فقد كان الولاة يشترون مناصبهم ، ثم يحصلون ما دفعوه من سكان ولاياتهم عن طريق فرض الضرائب الفادحة ، فاشتدت الوطأة على الشعب ، كما أهملت المشروعات الاصلاحية ، والخدمات ، فلم تشق قناة ، ولم يعبد طريق ، مما جعل الفلاحين لا يزرعون من الأرض الا ما يسد رمقهم وعائلتهم ، فانهار الوضع الداخلى ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما أصـاب مصر بعد الغزو التركى فى عام ١٥١٧ م فقد كان يتولى امارتها أحد الباشوات ، فكان المماليك الذين تولوا الادارة فى الأقاليم يتمردون عليه ويشقون عصا الطاعة لدرجة أنهكت قوى الدولة فى الصراع الذى اندلع بين المجموعات المتصارعة على السلطة ، وكان من نتيجة ذلك انتشار الأمراض والفقر ، وانهيار الاقتصاد فنقص عدد السكان ، وأصبحت البلد التى كانت تتمتع بخيرات أرضها الوفيرة تعانى من فقر مدقع •

* بدا الوضع كما لو كان الخلفاء قد أغضوا أعينهم عن الحالة الداخلية المتدهورة لكنهم استطاعوا الصمود طويلا بفضـل حملاتهم

الحربية ضد أوروبا المسيحية ، فقضوا على الدولة البيزنطية قضاء تاما عندما استولوا على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث المعارك التى خاضها العثمانيون فى دول البلقان •

١٠ — فارس بين الانحطاط والازدهار :

* اتجه العثمانيون نحو الشرق ، ففرضوا سلطانهم على الامارات المتبقية فى الأناضول ، ومن بينها المملكة البيزنطية طرابزون ، التى ضمت فيما بعد الى الدولة التركية بعد زواج « آصون حسن » من أميرتها • كذلك وقعت بينهم وبين القبائل التركستانية — الذين حطوا رحالهم فى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات — معارك هزمت فيها تلك القبائل على يد محمد الثانى فى عام ١٤٧٣ م ، فمد العثمانيون سلطانهم على الأراضى الفارسية ، لكن الصفويين استطاعوا فى عام ١٥٠٢ م اغتصاب الحكم فى ايران وتكوين دولة شيعية •

* أرجع مؤسس الدولة الصفوية نسبه الى على بن أبى طالب ، وأعلن مذهب الشيعة مذهبا رسميا للدولة ، فقامت بين الشيعيين الايرانيين وبين العثمانيين السنيين عداوة مذهبية ، ظلت نارها متأججة حتى نهاية الدولة الصفوية ، وكانت لها آثار سيئة على السنيين المقيمين فى ايران ، اذ اضطهدتهم الدولة ، وتعقبتهم فى كل المجالات •

* أحرز سليمان الأول نصرا محليا على الصفويين ، فغزا المدينة الايرانية تبريز لكن سرعان ما استعادت الدولة سلطانها ، ووصلت الى ذروة مجدها فى عهد عباس الأكبر (١٥٨٧ — ١٦٢٩ م) الذى نقل مقر الحكم الى أصفهان ، وكون أول جيش نظامى فى دولته ، وصرف لأفراده رواتب منتظمة ، فانتزع به بغداد من الأتراك ، كما استولى على المدينتين المقدستين عند الشيعة ، وهما : مشهد وكربلاء • لكن الدولة انهارت تدريجيا بعد موته ، بسبب النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعيين وبسبب غارات الأفغانيين الذين استطاعوا فرض سلطانهم على مناطق ايرانية فشاعت الفوضى فى الدولة ، وأدت الى قيام دولة القاجاريين — ويجرى فى عروقهم دم تركى — الذين حكموا اسما فقط حتى عام ١٩٢٥ م •

* كان المنتصر فى هذا التحول هم الروسيون والأتراك ، فقد ضم الروسيون فى عهد بطرس الأكبر مناطق جديدة على البحر الكاريبى الى دولتهم ، واحتل العثمانيون غرب فارس •

* * *

١١ — سليمان العظيم :

* كان عام ١٥١٧ م بداية حقبة زاهرة فى تاريخ الدولة العثمانية ، وذلك بعد غزو مصر ، فعندما قضى السلطان سليم على آخر سلطان مملوكى فى مصر ، ومحا واجهة الخلافة العباسية فيها ، أصبح الطريق الى مكة مفتوحا أمامه ، فوحد السلطة الدينية والسياسية . كما سهل له استيلاؤه على مصر والمناطق الخاضعة لها اخضاع شمال أفريقيا له ، وفتح باب التحكم فى تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط . فأقام أسطولا بحريا ليفرض سيطرته على هذه المنطقة فى مواجهة القوى المسيحية .

* لم تظهر فعالية هذا الأسطول الا فى عهد ابنه سليمان العظيم ، الذى انتقل اليه الحكم بعد أبيه ، دون أن يظهر الصراع المألوف — فى مثل هذه الأحوال — على السلطة . وصفه الأوروبيون بـ « العظيم » بسبب ما شاع بينهم عن بلاطه من أحداث وقصص خيالية ، أشبه ما تكون بقصص ألف ليلة وليلة ، أما المسلمون فيلقبونه بـ « القانونى » لأنه أعاد تنظيم الجيش وأدخل تعديلات فى قوانين الملكية ، وفى أنظمة الدولة .

* أدخل سليمان تعديلات فى العلاقات السياسية بالمناطق الشمالية فور توليه الحكم ، اذ استغل النزاع الداخلى فيها ، فغزا بلجراد فى عام ١٥٢١ م ، كما نفذ خطط أبيه ، فاستولى على جزيرة رودس ، فقضى بذلك على قراصنة البحر المسيحيين الذين كانوا يهددون حركة التجارة التركية . كذلك استفاد من النزاع الذى كان قائما بين القيصر الألمانى وملك فرنسا ، الذى أيد سليمان فى سياسته فى أوروبا ، فظل الفرنسيون بفضل هذه السياسة مفضلين فى بلاط السلطان العثمانى لعدة قرون .

* هزم سليمان المجر فى موقعة « موهاكس » فأجبر « فرديناند » قيصر النمسا على تتويج « يوحنا زابوليا » ملكا على المجر .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث معاركه فى أوروبا — وشمال أفريقيا حين طرد كارل الخامس من الجزائر — وسياسته مع حكامها ، واقامته المساجد فى المناطق التى استولى عليها ، ثم فترة الهدوء النسبى التى سادت الجبهة الأوروبية بسبب انشغاله بحروب ضد ايران لتخليص بغداد من الشيعيين وتعقبهم حتى احتل تبريز . ثم بعد الانتهاء من الجبهة الايرانية . استأنف نشاطه فى أوروبا حتى أجبر « فرديناند » على دفع الجزية للدولة العثمانية .. ثم ختم الحديث عن سليمان بقوله :

« قويت الدولة فى عهد سليمان — الذى امتد ٤٩ عاما — الى درجة، لم تبلغها أى دولة فى آسيا وأوروبا فى ذلك التاريخ ، فقد ارتفع الهلال التركى فوق الأناضول وشمال افريقيا ، ومصر ، وفلسطين ، وسوريا ، والبلقان ، والمجر • وفى المجال السياسى والعسكرى استطاعت الدولة العثمانية أن تثبت قدرتها بتفوق على العمل فى عدة جبهات فى وقت واحد ، فلمع نجمها وتلألأ مجد سلطانها بين الدول • ويرى المؤرخون أن الدولة بلغت ذروة مجدها فى عهد سليمان العظيم ، ثم بدأت طريقها الى الضعف بعد موته ، وأخذت تترنح فى طريق منحدر ، ولم يستطع خلفاؤه انقاذها لأنهم كانوا ضعافا عاجزين •

* * *

١٢ — انهيار السلطة العثمانية :

* بدأ انهيار السلطة العثمانية من الجانب الاقتصادى ، عندما أخذت البرتغال المبادرة فى هذا المجال ، ونجحت فى تحويل مسار السفن التجارية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن هذا التاريخ بدأ كسر احتكار تجارة الحرير والتوابل ، فأصبحت لشبونة المركز التجارى الرئيسى لهذه البضاعة الهامة ، فقضت على استراتيجية البحر الأبيض المتوسط التجارية ، التى ظلت ملازمة له فى العصر القديم والعصور الوسطى ، نعم ! •• ظل طريق القوافل عبر سوريا الى أوروبا كما كان من قبل ، لأن البرتغاليين — على الرغم من حاميتهم العسكرية فى الخليج — لم ينجحوا فى فرض سيطرتهم على البحر الأحمر •

* لم تنتظر انجلترا طويلا ، فقد بحثت عن أسواق جديدة للتنك والصوف فرسمت خططها على أساس تبادل سلعها ببضائع شرقية فبينما كان الوضع بالنسبة لفرنسا فى بلاط السلطان لا يعود عليها بفائدة كبيرة ، نجحت انجلترا فى استمالة السلطان الفارسى الى جانبها ، فأبحرت سفنها فى الخليج ، ودخلت فى صراع مع القواعد البرتغالية فى البحرين وهرمز • وبينما بدأت سلطة البرتغال تتهاوى ، تشجعت انجلترا ، فسيطرت على طريق رأس الرجاء الصالح ، كما أخرجت البرتغال من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى •

* بدأت بواعث فرنسا تتحرك الى تكوين مستعمرات لها فى عهد « لودفيج » الرابع عشر •• ثم يمضى المؤلف فى تناول أحداث الصراع بين انجلترا وفرنسا على المستعمرات بالتحليل ، وبيان نجاح انجلترا فى السيطرة على المناطق المجاورة لفارس ونجاح فرنسا فى غلق أبواب سوريا أمام التجارة الانجليزية •

* بينما قام مجد الدولة العثمانية بمجهود سليمان الشخصى ، لم يستطع سليم الثانى أن يضيف شيئا سوى استيلاؤه على بغداد • ومن الأحداث التى اشتهر بها عهده هزيمة أسطوله عند « ليبانتو »(١) هزيمة ساحقة أمام القوات النمساوية بقيادة دون جوان ، وللأسف لم يستغل المسيحيون — هكذا يقول المؤلف — هذه الفرصة واكتفوا بفرض سيطرتهم على الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط •

* لعب سوء الحالة الداخلية دورا فى اخفاق الدولة العثمانية فى المجال الخارجى فمنذ عام ١٤٠٠ م تقريبا واغتيال الأشقاء فى مجال الصراع على السلطة يكاد يكون من الأمور العادية ؛ فقد كان البقاء للأقوى . ولكنهم اتفقوا فى عام ١٦١٧ م على أن يلى العرش أكبر أبناء الخليفة الراحل ، فترك الخلفاء تسيير أمور الدولة لوزرائهم وانشغلوا بملذاتهم من نساء وغناء ولهو • ومنذ القرن السابع عشر لم يخرج خليفة بنفسه على رأس جيشه فى أى معركة ؛ فوقعت الدولة تحت سيطرة الفرق الانكشارية ، التى كانت تعد أنفاس الخليفة وتتحكم فيها بواسطة براعتهم وتكاتفهم فى المجال السياسى كذلك أصبح حكام الولايات ملوكا فى ولاياتهم فكثرت الثورات ، وانتشرت الرشوة لدرجة أن سلطة الموظفين المدنيين فاقت سلطة العسكريين ، فأصبحت مصالح الشعب تحت رحمة المنافع الشخصية • ووصل الفساد الى ذروته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى •

* نشط الوزراء من آل « كوبرولو »(٢) فبسطوا سلطانهم على

---

(١) « ليبانتو » : مدينة فى البوتا على خليج « ليبانت » •

(٢) « كوبرولو » أسرة تركية ، تولى عدد منها منصب الوزارة فى الدولة العثمانية • محمد : (١٥٨٣ — ١٦٦١ م) مؤسس العائلة ، ارتفع من خدمة المطبخ الشاهانى الى الصدارة العظمى بعد تعاقب الوزراء وانتشار الفساد • خدم الدولة بنزاهة ونشاط ، وقمع التعصب ، ورد الى الحكم هيبته •

فاضل أحمد : (١٦٣٥ — ١٦٧٦ م) ابن محمد وخلفه ، جمع فى استامبول مكتبة ، اشتهرت باسم « كوبرولو » فتح مدنا فى المجر وقريطش ، وجدد الامتيازات الفرنسية •

مصطفى : (١٦٣٧ — ١٦٩١ م) ابن محمد ، تسلم الصدارة (١٦٨٨ م) ، فأصلح المالية ، وفتح بلجراد • قتل فى الحرب •

حسين : ابن أخى محمد ، تولى الوزارة من (١٦٩١ — ١٧٠٢ م) عقد معاهدة كارلوفتس فى عام ١٦٩٩ م •

المجال السياسى بعد موت سليمان حتى ابرام معاهدة « كارلوفيتس » فى عام ١٦٩٩ م ويرجع الفضل اليهم فى مكاسب الدولة فى جزيرة كريت ، وغزو « بودوليا »(١) فى عام ١٦٧٢ م ، كذلك بذلوا جهودا محمودة فى المجال العسكرى ، ولكن لم يمكنهم هذا من وقف تدهور الدولة •• وبعد أن يسرد المؤلف أحداث حصار فيينا ، ونجاح الأوروبيين فى فكه يقول : « ومنذ ذلك التاريخ تتحكم البلاد القريبة فى سير الأحداث فى المجالين : السياسى والعسكرى فقبل سبعة عشر عاما من حصار فيينا ، وصلت الدولة الى ذروتها فى التوسع الاقليمى وذلك عندما أجبرت بولندا على التنازل عن « يودوليا » ولكنها أدركت أنها بدأت فى التقلص • وبعد فك حصار فيينا أصبح المدافع مهاجما ، اذ كونت النمسا وبولندا وفينيسيا حلفا ضد العثمانيين ، فاستطاعوا بعد موقة « موهاكس » فى عام ١٦٨٧ م تحرير المجر ، ثم استولوا على بلجراد فى ٦ سبتمبر ١٦٨٨ م ، وهاجموا « نيس » •• فأخذوها فى عام ١٦٨٩ م ، وكانت هزيمة الأتراك ساحقة فى عام ١٦٩٧ م لدرجة أنهم وسطوا انجلترا وهولندا فى عقد معاهدة صلح ، فأبرمت معاهدة « كارولوفيتس » فى عام ١٦٩٩ م ، فأكدت للنمساويين والبولنديين والسلافيين والروس أيضا ضعف تركيا فتحفزوا جميعا لاستغلال هذا الضعف •

* * *

١٣ — الضغط الروسى :

* اندلع النزاع بعد توقيع معاهدة « كارلوفيتس » بين حاكم المجر « فرانس فون راكوكس » والنمسا ولم يستطع أحمد الثالث تقديم أية مساعدة له • ولم يتخذ نفس الموقف مع كارل الثانى عشر ملك السويد — الذى وجد ملجأ حصينا عند العثمانيين بعد هزيمته أمام الروس فى موقعة « بولتاو » — فقدم له مساعدة مكنته من هزيمة القيصر عند « بروث » لكن رشوة الصدر الأعظم أنقذت روسيا من توقيع معاهدة سلام مهينة •

* حالف الحظ العثمانيين فاستطاعوا استرداد بعض المناطق من الفينيسيين لكن حلفاءهم النمسويين ساعدوهم على انزال الهزيمة بالجيش العثمانى •• ويمضى المؤلف فى سرد أحداث الحروب والمعاهدات التى أبرمت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، ومحاولة

---

(١) « بودوليا » ولاية فى غرب أوكرانيا ، خضعت للحكم التركى من عام ١٦٧٢ م حتى ابرام معاهدة (كارلوفيتس فى عام ١٦٩٩ م) •

العثمانيين اصلاح الجيش بواسطة الاستعانة بالخبرة الفرنسية وظهور النزعة القومية ، ورد الفعل المضد من العثمانيين باحياء العاطفة الدينية على أساس حماية مركز الخليفة الدينى ، وتقوية الروح الاسلامية فى المجتمع فأدى ذلك الى نوع من التترابط فى مواجهة الرعايا غير المسلمين، وخاصة اليونانيين ، وبهذا اكتسبت المجالات السياسية والعسكرية طابعا دينيا ..

* أعجب مصطفى الثالث — الذى تولى الحكم فى عام ١٧٥٧ م — بـ « فردريك الأكبر » فاتخذ واقعيته نموذجا له ، غير أن الروس فى عهد « كاترينا الثانية » أفسدوا خططه اذ تسبب ادعاؤهم بأن لهم الحق بالتدخل لحماية المسيحيين الأرثوذكس — ليس فقط فى البلقان . بل فى داخل تركيا أيضا — فى اندلاع حرب مع الدولة العثمانية ، استمرت من عام ١٧٦٨ — الى ١٧٧٤ م ، ففقدت فيها تركيا أسطولها كما خرجت شبه جزيرة القرم(١) من تحت سيطرتها ، وهكذا انفصلت منطقة اسلامية — طبقا لمعاهدة « كوتشك » — عن السلطة العثمانية ، مع بقاء زعامة الخليفة الروحية لسكانها ، الا أن روسيا أعلنت فى عام ١٧٨٣ م أن القرم جزء لا يتجزأ من المملكة الروسية ، ولا يجوز لأحد التدخل فى شئونها اطلاقا . وبذلك فقد الخليفة حقه فى ممارسة زعامته الروحية لسكانها . ثم انتزعت روسيا لنفسها الحق فى أن تبحر سفنها فى البحر الأسود ، وان كانت تركيا قد استطاعت فيما بعد أن تسترد حقها فى الرقابة على حركة الملاحة ، كذلك تسبب هجوم النمسا وروسيا على تركيا اثر نزاع على الحدود فى القوقاز فى القضاء على الأسطول التركى فى عام ١٧٨٨ م وأجبر المسلمون فى عام ١٧٩٢ م على الاعتراف فى معاهدة «ياسا» بـ « دستر » كخط للحدود .

* أضعفت الهزائم المتتالية مركز تركيا فى مجال السياسة الخارجية والداخلية فلم تستطع وقف تقهقرها من مناطق البحر الأبيض المتوسط ، الذى انتهى بخروج مصر من دائرة سلطانها . ويرجع صمودها طويلا فى هذا الوضع الى النزاع الذى كان قائما بين القوى العظمى : انجلترا وروسيا وفرنسا ، اذ كانت مشاكل الدردنيل وقناة السويس تسببا فى ظهور ما يسمى بـ « المسألة الشرقية » على مسرح السياسة الدولية وهى من المشاكل التى كانت تهم أوروبا بالدرجة الأولى ، ومن

---

(١) القرم : شبه جزيرة تقع بالقرب من شاطئ البحر الأسود .

هنا كانت السياسة الأوروبية مهتمة بخلق توازن بين القوى ، لمنع روسيا من ارث تركيا فى حالة انهيارها انهيارا كليا ، وعليه فقد التزمت بالمحافظة على بقاء تركيا أكبر وقت ممكن ، وتضمنت خطتها ألا تسمح بتفككها الا فى حالة ضمان توزيعها بالتساوى ، لكن هجوم نابليون على مصر حول اهتمام انجلترا نحو مصر ، فشغلها عن مراقبة الضغط الروسى لعدة أعوام تالية .

* * *

١٤ ــ طريق مصر الى الاستقلال :

* كان المقصود من الحملة الفرنسية ــ التى نجحت الى حد ما ــ قطع طريق انجلترا الى الهند ، فبضائع الهند كانت تنقل عبر البحر حتى السويس ، ثم تنقل برا الى البحر الأبيض المتوسط ، ثم تنقلها السفن الى أوروبا ، فأرادت فرنسا ــ وهى المنافس الرئيسى لانجلترا فى مجال التجارة الدولية ــ مضايقتها ، فأرسلت حملة الى مصر بقيادة نابليون لأنه لم يكن من الممكن ــ فى مجال الصراع الدولى ــ أن تشن حرب على الجزيرة البريطانية . لم تحرز هذه الحملة نصرا عسكريا ــ باستثناء معركة غرب القاهرة عند سفوح الأهرامات ــ ولكنها وضعت أساسا لتوطيد العلاقة الفرنسية مع مصر . لم تمكث القوات الفرنسية فى مصر طويلا ، فقد أجبرتها قوات تركية بقيادة ابن السلطان سليم الثالث على الجلاء عنها فى عام ١٨٠١ م ، ويوجع الفضل فى نجاح القوات التركية فى مصر الى ضابط ألبانى اسمه : محمد على ، رقى فيما بعد الى رتبة جنرال تقديرا لجهوده العسكرية .

* استطاع محمد على أن يطغى على نفوذ الباشا ، الذى عينه السلطان واليا على مصر ، فنصب نفسه حاكما على جنوب مصر ، ووافق أصحاب الرأى فى القاهرة على توليته هذا المنصب . وفى عام ١٨٠٦ م بسط نفوذه على القطر المصرى كله ، فعينه السلطان واليا عليه .

* أحرزت الدبلوماسية الفرنسية أول نصر لها فى هذه الفترة اذ نجح رسول نابليون فى اقناع تركيا بالخروج من التحالف مع انجلترا وروسيا ، فنتج عن ذلك قيام حرب بينها وبين روسيا ، ساعدت فيها انجلترا روسيا ، وذلك بانزال كتيبة على شاطىء مصر فى عام ١٨٠٧ م ولكن محمد على انتصر عليهم وردهم على أعقابهم ، كان لهذه الحملة آثار بعيدة المدى فى رسم طريق المستقبل لمصر ، اذ لم يستحسن المماليك ازدياد نفوذ محمد على بعد انتصاره على انجلترا ، كذلك لم يغفر هو

لهم محاولة استغلال الموقف لصالحهم أثناء المحاورات مع انجلترا ؛ فدبر لهم مذبحة وتخلص منهم نهائيا ثم اتجه الى بناء الدولة متخذا الطراز الفرنسي نموذجا له ؛ وكان اهتمامه فى هذا المجال مركزا على بناء جيش وأسطول والنهوض بمصر لتلحق بالحضارة الأوروبية • ولكن المبادرة تركزت فيما بعد على تحقيق مصالح شخصية ؛ فتحولت الى دكتاتورية قاسية عانى منهـا الشعب ــ وخاصة الفلاحون ــ معـاناة لا حدود لها ؛ فقد كانت كل المشروعات الاصلاحية ــ بما فيها المدارس والمصانع ــ موجهة لبناء القوات المسلحة فقط ، لأن هدف محمد على كان الاستقلال عن تركيا وان تظاهر بالولاء والطاعة للسلطان •

* تركز اهتمام محمد على باشا على النجاح فى العمليات العسكرية ؛ لأنه رأى أنها طريقه الى المجـد ، والى امكانية استقلاله بمصر عن تركيا ؛ ولذا لم يتأخر فى تلبية طلب السلطان منه اخضاع الوهابيين •• ويمضى المؤلف فى بيان :

رأى الوهابيين فى الاصلاح ونجاحهم العسكرى ثم هزيمتهم أمام قوات محمد على •

وقيام الثورات فى البلقان ؛ وارسال محمد على ابنه ابراهيم ــ بناء على طلب السلطان ــ على رأس جيش مصرى الى اليونان ، فاستولى على « ميسولونجى » على خليج « كورنث » فى عام ١٨٢٦ م ثم سقطت « اكروبوليس » فى عام ١٨٢٧ م فقررت انجلترا وفرنسا وروسيا فى معاهدة لندن مساعدة اليونان ؛ فأرسلوا انذارا الى محمد على بسـحب قواته فلم يستجب ؛ فضربوا أسطوله فى موقعة « نوارين » ثم وافق فى ٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ م على الانسحاب من اليونان • وفى بروتوكول لندن عام ١٨٢٩ م أعلنت القوى الأوروبية العظمى استقلال اليونان عن تركيا ؛ ولكن لم تعترف تركيا بهذا الاستقلال الا فى معاهدة «ادريانوبل» •

* لم يف السلطان بوعده لمحمد على باعطائه سوريا مكافأة له على اشتراكه فى الحرب ؛ فجرد حملة استولى بها على عكا ودمشق وحلب ، ثم ضرب الجيش التركى ضربة قاصمة عند كونيا فى عام ١٨٣٢ م فتحركت الدبلوماسية الانجليزية والفرنسية ــ بدافع من خوفها من وصول روسيا الى المضايق ، بعد أن رسى الأسطول الروسى فى القسطنطينية ــ لحماية السلطان ــ فتوصلت الى اجلاء محمد على عن سوريا وانسحاب الروس من القسطنطينية •

* وثق محمد على بالسياسة الفرنسية ، فاقتربت انجلترا من السلطان ، وعندما وصل محمد على عام ١٨٣٨/٣٧ م الى الخليج ، سارعت انجلترا باحتلال عدن لمنعه من مواصلة التوسع .. ثم بعد فشله فى محاولة استرداد سوريا قرر مؤتمر لندن الذى اشتركت فيه انجلترا وروسيا وبروسيا أن يكون الحكم فى مصر لأبناء محمد على يرثونه من بعده ، وفى مقابل هذا ينسحب محمد على من جزيرة كريت ومن سوريا ومكة والمدينة وبهذا انفصلت مصر عن تركيا عمليا وان ظلت تبعيتها للسلطان اسمية لا أثر لها .

* * *

١٥ ــ الرجل المريض عند البوسفور :

* استطاع الوزير رشيد باشا أن يقنع السلطان عبد المجيد بمواصلة تنفيذ البرامج الاصلاحية ، التى بدأها أبوه محمود الثانى . فقد استعان محمود بخبراء عسكريين من بروسيا لاصلاح الجيش . كما اتخذ النظام الأوروبى نموذجا له فى الاصلاح الادارى .

* واصل عبد المجيد دفع عجلة الاصلاح ، وتبنى الأفكار الليبرالية ، فأصدر مرسوما نال بمقتضاه الشعب حقه فى الحرية والملكية، كما وضع خططا اصلاحية ضخمة فى مجال القضاء والتعليم والرعاية الصحية ، ولكن لم يكن لهذه السياسة صدى فى أوروبا فقد تأخر الاعتراف بمماثلة تركيا للقوى الأوروبية ،اذ كان ينظر اليها فى هذه الحقبة على أنها الرجل المريض عند البوسفور . فعندما زار القيصر « نيكولاوس الأول » انجلترا فى عام ١٨٤٤ م تناولت المباحثات الاجراءات المشتركة التى يجب اتخاذها فى حالة الانهيار السياسى لتركيا فى المستقبل القريب.

* واتت الرجل المريض ــ الذى حفرت قطع أوصال مملكته جروحا عميقة فى جسمه فتسببت فى نزيف داخلى حاد ــ فرصة لتضميد بعض جراحه ، وكان ذلك بعد الانتهاء من حرب القرم . بدت ملامح هذه الفرصة ، عندما طلبت روسيا منحها حق ممارسة زعامتها للمسيحيين الأرثوذكس ، المقيمين داخل الدولة العثمانية . فرفضت تركيا وأيدتها انجلترا فى هذا الرفض . فتحركت روسيا وفرضت حمايتها على امارة الدانوب فأعلنت تركيا الحرب ضد روسيا ، وساعدتها فى هذه المرة انجلترا وفرنسا اذ حرس أسطولهما الشواطىء التركية فأمن حركة التجارة فى البحر الأسود . ثم عقدت معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ م ، ونص فيها على التزام القوى العظمى بعدم الاعتداء على تركيا ، وتحييد البحر

الأسود ، وانهاء الحماية الروسية على امارة الدانوب ، كما اعترفوا فى المعاهدة بسيادة تركيا على « فولدافيا » و « فالاخيا » و « الصوب » ، فنجت تركيا مرة أخرى من التقسيم بسبب الاختلاف بين القوى العظمى على تقسيم تركة الرجل المريض .

* شعرت الدولة العثمانية ، بفضل أوروبا عليها ، فازداد اقترابها فى سياستها الداخلية من النموذج الأوروبى الليبرالى ، فصدر دستور ١٨٥٦ م الذى سوى فيه بين المواطنين — بما فيهم المسيحيين — فى الحقوق المدنية ، وكفل حرية الأديان ، .. وقضى على التفرقة فى كل المجالات المهنية والوظيفية سواء كانت عنصرية أو طائفية ، فليس هناك سوى عثمانى فقط ، وبهـذا انتهى — رسميا — عهد اضطهاد الطوائف الأخرى كما سمح للأجانب بالحيازة والملكية .

* أدت الحروب وبرامج الاصلاح — بالاضافة الى تفشى الرشوة بشكل مخيف ، لا يتوقف عن الانتشار فى المجتمع والى بذخ السلطان — الى وقوع تركيا فى عام ١٨٧٤ م فى أزمة مالية عصيبة .

* وتسببت الثورات فى البلقـان فى اقلاق مضـاجع الأتراك ، فاستعملوا أسلوبا قاسيا معهم ، أثار حفيظة زعيم المعارضة فى انجلترا ، فطالب بطرد الأتراك من المناطق الأوروبية .

* تطورت الأحداث الى أن عقد مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨ م فحصلت فيه انجلترا رسميا على قبرص ، واستقل شمال بلغاريا فأصبح امارة ذات سيادة واعترف باستقلال منطقة الجبل الأسود (مونتنجرو Mantenegrw وضمت اليونان منـاطق جديدة الى ادارتهـا ، كما أخذت روسيا ولاية « بسارابيا » من رومانيا فى مقابل أن تحصل رومانيا على « دوبروجيا » .. الخ . لقد خطت أوروبا فى تقسيم تركة الرجل المريض خطوات نحو الأمام ولكن لم تخرج تركيا من كل مناطق البلقان ، ومن هنا استمرت القلاقل التى تدفع القوى العظمى المتنازعة الى وضع خطة .

* * *

١٦ — مصر على الطريق البحرى الانجليزى :

* وقعت مصر فى أزمـة مالية بسبب المشروعات الاصـلاحية المتعددة ، والتدخل فى منطقة البحر الأحمر والسودان ، ولم يجد الخديوى مخرجا منها سوى بيع أسهم الدولة فى شركة قناة السويس لانجلترا ، وبهذا ازداد نفوذهما فى البلاط الخديوى ، فأرسلت هى وفرنسا هيئة

رقابة مالية الى مصر لمراقبة الميزانية ، ثم عين وزيران أحدهما انجليزى والآخر فرنسى فى وزارة نوبار باشا ، ولكن حين اشتد ضغط التيار القومى عزل السلطان الخديوى لعدم استطاعته التصدى للتدخل الانجليزى والفرنسى • تطورت الأحداث بعد ذلك ، فثار الجيش ضد الخديوى وأجبره على تعيين وزارة محمود سامى التى كان أعضاؤها واقعين تحت تأثير الأفغانى الذى يعتبر الأب الروحى للحركات الوطنية ، فتدخلت انجلترا بحجة حماية الخديوى ، وأدى هذا التدخل الى احتلال انجلترا لمصر فى عام ١٨٨٢ م وبهذا خرجت مصر من محيط التأثير الفرنسى ودخلت فى دائرة النفوذ الانجليزى •

* وهكذا ازداد التفتت فى أجزاء الدولة العثمانية ، فقبل هذا بعام واحد — أى فى عام ١٨٨١ م — دخلت تونس فى دائرة النفوذ الفرنسى •

* * *

١٧ — المهدى : لعبة صغيرة بين الأحداث الكبرى :

* لم تستقر الأحوال أيضا فى السودان منذ حركتها طائفة دينية بقيادة الدرويش محمد بن عبد الله فى عام ١٨٧٠ م • فقد منع المهدى أتباعه من ممارسة كل ما يخالف تعاليمه فى مجال العقيدة ، وحرم عليهم التدخين وشرب الخمر ، كما تصدى لمحاربة التدخل الأجنبى بجميع صوره • وفى عام ١٨٨١ م أعلن الجهاد وزحف بجيشه حتى وصل الى الخرطوم حيث وقع الحاكم البريطانى « جوردون » قتيلا بسيوف أتباعه • وفى عهد خليفة المهدى هاجم أتباعه الحبشة ؛ ولكن « اللورد كيتشنر » استطاع فى عام ١٨٩٨ م التغلب على هؤلاء « الأعداء المتعصبين » — هكذا يقول المؤلف — ويقضى على المملكة المهدية قضاء نهائيا •

* * *

فى المملكة ازداد خوفه :

١٨ — المبادرة الألمانية لانشاء الخط الحديدى :

* ويجد السلطان نفسه فى موقف حرج ، فكلما انتشرت القلاقل من تدبير المؤامرات ضد الدولة •

ومن تضييق الدائرة عليه داخل مقر حكمه •

ومن ارتفاع معدل الانفاق على أجهزة النظام البوليسية •

ولكى يضمن الاستمرار فى السيطرة ، فقد رغب فى توسيع شبكة

المواصلات حتى يتمكن من احكام الرقابة على كل أجزاء الدولة ؛ فاختار مهندسين ألمانيين للقيـــام بهذا العمل ؛ ولم يكن هذا الاختيار عشوائيا ، فهو لم يثق فى الانجليز بعد استيلائهم على قبرص ، وموقفهم العدائى فى مصر • ولذا فضل الاستعانة بالألمـــان •

* ازداد التأثير الألمـــانى فى المملكة ، دون أن يحرك ذلك شكا عند البريطانيين ؛ اذ قدم الألمـــان مساعدة لتركيا فى بناء الخط الحديدى فى البلقان ، وأرسلوا فى عام ١٨٨٣ م بعثة عسكرية الى تركيا ؛ وعقدوا معاهدة تجارية فى عام ١٨٨٤ م ، كما حصلوا فى عام ١٨٨٨ م على اذن بتوصيل الخط الحديدى حتى أنقرة • دفعت انتصارات الألمـــان على فرنسا فى عام ١٨٧١/٧٠ م السلطان الى منح الشركة الألمـــانية عقدا لبناء خط بغداد • وقبل نهاية القرن بقليل وقع عقد لتوصيل الخط الحديدى الى حلب عن طريق « كونيا » •

* لم تتحرك انجلترا الا عنـــدما حاولت الحكومة الألمـــانية الحصول على اذن من شيخ الكويت بتوصيل الخط حتى الخليج • وبناء ميناء عليه ؛ فقدم أسطولها بمظاهرة حربية فى الخليج ، لكن المفاوضات طالت وتعسرت الى أن وافقت انجلترا على مد الخط حتى البصرة ؛ كذلك اصطدم مشروع بناء خط الحجاز بمعارضة انجلترا •

* أفسد الاهتمام الألمـــانى — الذى لم يعرف أحد ما يخفى وراءه — سياسة التوازن فى الشرق ، لأن خطوط المواصلات ساعدت تركيا على ارسال قواتها للدفاع عن سيادتها فى المناطق الثائرة • كان هدف السياسة الألمانية وضع اسفين بين القوى العظمى ، •• للحصول على ما يمكن الوصول اليه ، ومن مكاسب هذه السياسة قيام صداقة متينة بين تركيا وألمـــانيا ، تلك الصداقة هى التى دفعت تركيا الى دخول الحرب العالمية الأولى بجانب ألمـــانيا بمجرد اندلاعها •

* * *

١٩ — استيلاء الشباب التركى على الحكم :

* ارتفعت الأصوات فى المملكة مطالبة بعودة الدستور الذى وضع مسودته مدحت باشا فى عام ١٨٧٦ م وتحت ضغط الاضطهاد تكونت لجان سرية فى كل مكان داخل الأراضى التركية ، وبين المنفيين خارجها ، وانضم اليها تدريجيا بعض أفراد من الجيش ، وكان هدف هذه اللجان :

الاصلاح طبقا للنموذج الأوروبى •

الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية •

* اشتد غضب أعضاء هذه اللجان من تدخل الأوروبيين فى مقدونيا ، فقاموا بأول ثورة لهم ، وكان ذلك فى ٥ يوليو سنة ١٩٠٨ ، وفى نهاية الشهر أعلنوا فى سالونيكى عودة الدستور ، واحتلوا القسطنطينية ، فاضطر السلطان الى الاذعان لمطالبهم •

* كانت أغلبية البرلمان الذى افتتح فى ديسمبر من نفس العام من الشباب التركى ، غير أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان وجدت أيضا لها بين المحافظين أنصارا • فاستطاع السلطان أن يوجه ضربة الى الشباب التركى ، ولكن الجيش زحف من مقدونيا على القسطنطينية فخلع السلطان ، وعين أخاه محمد الخامس مكانه •

* وافقت الأحزاب الليبرالية على أن يكون للسلطان الحق فى تعيين كبير الوزراء واختيار الوزراء الذين يتحملون المسئولية أمام البرلمان ، ولكن ليس للسلطان الحق فى حل هذا البرلمان •

* ولكن لم تستطع الحكومة الجديدة أن تمنع انهيار المملكة العثمانية •

* * *

٢٠ — الحرب العالمية الأولى :

* لم تتردد تركيا فى الدخول فى الحرب بجانب ألمانيا ، وفشلت جهود الحلفاء فى حملها على اتخاذ موقف حيادى ، كما ضاعت أيضا جهود السلطان فى حمل العالم الاسلامى على الوقوف بجانبه عن طريق محاولة اقناع المسلمين بأنها جهاد فى سبيل الله لحماية الدولة الاسلامية ، اذ انتهز العرب هذه الفرصة للتخلص من سيطرة الحكم التركى عليها وكان هدفهم قيام دولة عربية ، فنسوا فى سبيل الحصول على هذا الهدف كل الروابط الدينية التى تربطهم بتركيا ، فاشتركت قواتهم — بجانب القوات الانجليزية — فى محاربة اخوانهم فى العقيدة •• ويمضى المؤلف فى سرد أحداث القتال فى جبهات عدة مبينا نشاط الشريف حسين و « لورانس » والوهابيين واستيلاء « اللنبى » على فلسطين ووعد « بلفور » بانشاء وطن قومى لليهود ، كما وضح أن القوات التركية أثبتت جدارتها فى القتال ، فقد ألحقت بطارية الجيش

التركى الهزيمة بالأسطول الفرنسى الانجليزى عند هجومهما على الدردنيل فى عام ١٩١٥ ، وأرغمتهما على التقهقر ، كما فشلت محاولة البريطانيين انزال قواتهم فى « جالبولى » ، ويرجع الفضل فى ذلك الى براعة مصطفى كمال العسكرية ..

* عقدت محادثات فى ابريل سنة ١٩١٦ م بين انجلترا وفرنسا وروسيا ، فكان من بين بنود الاتفاق السماح لروسيا — بعد انتهاء الحرب — بضم أرمينية وجزء من شمال الأناضول وكردستان اليها .

* تكبدت تركيا فى العام الرابع للحرب خسائر فادحة ، فبدا عليها الانهاك ولاح فى الأفق أن النهاية قد قربت ، فلم تستطع المملكة أن تتحمل العبء أكثر من هذا ... فانتهت الحرب وفتحت المضايق المائية أمام الحلفاء فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ م كما وزعت التركة ، فأصرت انجلترا على استمرار حمايتها لمصر ، وأسندت اليها عصبة الأمم الوصاية على فلسطين ، والى فرنسا الوصاية على سوريا ، وصارت كل الدول العربية تابعة للقوات الأوروبية ، وان اختلفت صورة التبعية من قطر لآخر .

* نزل الايطاليون واليونانيون الى آسيا الصغرى فى أوائل عام ١٩١٩ أملا فى الحصول على نصيبهم من الغنائم فقد كانوا كلهم يفكرون فى تقسيم باقى التركة العثمانية على أنفسهم ، ولكن لم تتحقق أطماعهم فى آسيا الصغرى .

* * *

٢١ — مصطفى كمال « أتاتورك » :

* ظهر مصطفى كمال فى وقت حرج بالنسبة لتركيا ، اذ كانت تواجه عالما منتصرا يريد أن يمزقها اربا ، وكان ظهوره رد فعل للنزعة الوطنية التركية ازاء موقف الحكومة التركية المتخاذل أمام القوى المنتصرة ، فأيقظت شجاعته فى جبهات القتال الوعى القومى عند الأتراك لمقاومة محاولات القوى العظمى بخس الدولة واهانتها ، فدعا الى اجتماع وطنى طالب فيه بالمحافظة على وحدة الأراضى التركية .

* كان احتلال الحلفاء للقسطنطينية فى عام ١٩٢٠ هو السبب فى اندلاع لهيب هذه النزعة القومية الخطيرة ، اذ كان رد فعل مصطفى كمال على هذا العمل تأليف حكومة فى أنقرة ، وعقد معاهدة عسكرية مع روسيا ، ورغم هذا انهزم الوطنيون الأتراك المنهكة قواهم أمام

اليونانيين الذين دفعهم الحلفاء بعد انتصارهم فى معركة Alaeschir الى احتلال « بروسة » و « ادريانوبل » •

* وقعت الحكومة المتهالكة فى القسطنطينية فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ م معاهدة « سرفاى » التى نص فيها على تنازل تركيا عن كل المناطق غير التركية ووضع « أزمير » والمنطقة الواقعة وراءها تحت الادارة اليونانية لمدة خمس سنوات ، ومنح ايطاليا « رودس » وما يجاورها من الجزر الاثنتى عشرة ، كما اعترف فيها باستقلال « أرمينية » كما أعلن أن المضايق المائية مناطق منزوعة السلاح ، وخاضعة لرقابة دولية • ولم يبق لتركيا من أوروبا سوى منطقة صغيرة حول القسطنطينية •

* لم يكتف مصطفى كمال بالمعارضة السلبية لهذه المعاهدة ، بل استعد لحرب فى « أرمينية » لكنه لم يحصل منها الا على منطقة « ايريوان » الصغيرة ، لأن « أرمينية » صارت فى ذلك الوقت احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى •

* أمن الأتراك ظهورهم بصداقتهم للاتحاد السوفييتى ، واتجهوا الى مقاومة العالم الغربى ، ومما ساعد مصطفى كمال على انتزاع حقوق تركيا من المنتصرين الاعتراف الذى حظيت به حكومته من كثيرين ، وخروج ايطاليا من الأناضول مقابل حصولها على امتيازات اقتصادية ، وانتصار تركيا على اليونان فى خريف عام ١٩٢٢ وفشل محاولة انجلترا حمل ايطاليا وفرنسا على التدخل ضد تركيا ، فاستردت تركيا منطقة شرق تراقيا فى البلقان مقابل موافقتها على تدويل المضايق المائية •• ويمضى المؤلف فى بيان سياسة الحكومة التركية ، وانتهازها فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا للحصول على قدر أكبر من المكاسب السياسية والاقليمية الى أن وصل الى اعلان مصطفى كمال الغاء الخلافة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ فلم يعد الاسلام دين الدولة • ومن الطبيعى حدوث صدى فى العالم الاسلامى لهذا الاجراء خاصة فى الهند ، فقد كان المسلمون هناك يرغبون فى المحافظة على الخلافة لتكون لهم سندا يمكنهم من الوقوف فى وجه السياسة الانجليزية فى الهند ، كذلك تسبب الغاء الخلافة فى احياء النزعة القومية عند الأكراد فقاموا بثورة ضد الحكم التركى للمطالبة باستقلالهم داخل دولة كردية تفرض سلطانها على جميع المناطق الكردية فى المنطقة لكن الحكومة التركية أخمدتها

بعنف فسالت الدماء أنهارا فى مسرح العمليات وأعدم الشيخ المسئول عن اندلاع الثورة فى أنقرة ولكى تقضى الحكومة على مقاومة المتحمسين للاسلام فقد حلت التنظيمات الصوفية ، وأقفلت زواياهم • وفى بداية الثلاثينات من هذا القرن صدر قرار من الحكومة بألا تقل المسافة بين مسجدين عن ٥٠٠ مترا ، وتحول مسجد الحاجة صوفيا الى متحف ، كما حل القانون السويسرى محل قانون الأحوال الشخصية فحرم تعدد الزوجات تحريما قاطعا — وهو أمر لم يعرفه الشرق الاسلامى حتى الآن — واعطى للمرأة حق الترشيح والتصويت فى الانتخابات •

❊ أراد مصطفى كمال بنـــاء الدولة على الطراز الأوروبى ، وساعده الشعب — على الأقل سكان المدن — ظاهريا على ذلك فارتدى الملابس الأوروبية واستبدل غطاء الرأس الوطنى بالقبعة • وطبقـــا لقانون ١٩٢٩ حلت الحروف اللاتينية محل العربية ، فمنع استعمال العربى والفارسى فى المدارس ، كما حرم على المطابع استعمال الحروف العربية فى طبع الأدب التركى ، وبهذا عزل الأدب التركى عن الآداب الأجنبية التى تشترك معه فى عقيدة واحدة •

❊ كذلك اتخذ اجراء لم يكن من الممكن أن يتخذه رجال الحكم السابقون ، ولو علقوا على المشانق ، ذلك هو ترجمة القرآن الى اللغة التركية ، واستعمال الترجمة فى المساجد ، والسماح للمواطنين بالردة واعتناق المسيحية ، ولكن لم يحدث شىء من هذا فى الواقع العملى ؛ اذ لم يسمع أحد أن خرج مسلم عن دينه واعتنق المسيحية •

❊ أصبحت تركيا عضوا فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ ، وفى عام ١٩٣٤ كرم البرلمـــان التركى مصطفى كمال فأطلـــق عليه لقب « أتاتورك » ومعناه : أبو الأتراك ، تقديرا لخدماته لدولة تركيا الحديثة •• وبعد أن يستعرض المؤلف علاقات تركيا مع الاتحاد السوفييتى والعالم الغربى فى المجالات السياسية والاقتصادية يقول : مات مصطفى كمال فى ١٠ من نوفمبر ١٩٣٨ م تاركا وراءه دولة قوية ، تخلصت قيادتها من أحلام اللاواقعية •

❊ ❊ ❊

٢٢ — نهضة فارس فى عهد الشاه رضا خان :

❊ استطاعت فارس أيضا أن تنجو من ضغط القوى العظمى بعد الحرب العـــالمية الأولى ، فقد رغبت انجلترا فى بادىء الأمر فرض

سيطرتها عليها بعدما أعلن الاتحاد السوفييتى تنازله عن كل حقوقه فى فرض الحماية على أى منطقة خارج حدوده ، لكن البرلمان الفارسى رفض التوقيع على معاهدة الحماية ، فاضطر البريطانيون الى التراجع لأنهم لم يكن لديهم الاستعداد لاراقة المزيد من الدماء بعد الحرب ، فسحبوا قواتهم .

* ثم ظهر فى فارس رجل ذو نزعة تقدمية هو : رضا خان . كان ضابطا فى الجيش ، أبدى شجاعة واقدام فى حرب الحدود ضد البلشفيين ، وبعد توقيع المعاهدة مع روسيا ، زحف على طهران فأصبح قائدا عاما للجيش ووزيرا للدفاع فاستغل مركزه فى بناء جيش قوى ، وتسليحه بأحدث الأسلحة . وفى عام ١٩٢٣ أصبح رئيسا للوزراء ويمضى المؤلف فى سرد تاريخه حتى أصبح الرجل الأول فى الدولة ، فأراد أن يعلنها جمهورية ، ولكن التقاليد الدينية الشيعية لم تمكنه من تنفيذ رغبته ، فنصبه البرلمان فى عام ١٩٢٥ ملكا ، له كل حقوق الشاه فى فارس ، وغير اسمه فأصبح يعرف باسم رضا بهلوى ، كما غير اسم فارس فيما بعد فصارت تعرف باسم : ايران .

* قام رضا بهلوى بنهضة شاملة فى البلاد فعوضها ما فقدته عبر مئات السنين ولم يكن للبرلمان سوى الموافقة الروتينية على كل ما يعرضه من مشروعات وخطط ، ومن المشروعات الرئيسية لنهضة البلاد ربط المناطق بطرق مواصلات حديثة ، وانشاء الخط الحديدى بين بحر قزوين والخليج . وحظيت الآداب والتاريخ والتعليم باهتمام الحكومة اهتماما لا يقل عن اهتمامها بالنواحى الاقتصادية ، كما انتهجت سياسة مع شركات البترول ، ضمنت لها ربحا أكبر ، واعتنت بالزراعة ، فأنشأت المعاهد الزراعية ، ووضعت خطة لتوطين البدو الرحل .

* سقط حجاب المرأة رسميا فى عام ١٩٣٦ م ، وان كانت التقاليد حالت دون سقوطه عمليا لعدة أعوام لاحقة ، ولكن الحركات النسائية أيقظت المرأة من ثباتها .

* بقى الاسلام فى صيغته الشيعية دين الدولة فى فارس ، فاحتفظت بصداقة البلاد الاسلامية ، وحاولت اقامة علاقات ودية معها ، كى لا تنقطع مشاركتها فى المجالات الدينية والأدبية فى منطقة الشرق ،

كما احتاجت ايران فى تنفيذ البرامج الاصلاحية الى اقامة علاقات طيبة مع القوى العظمى فى العالم ، ومع الدول المجاورة لها فعقدت معاهدة صداقة مع القوى العظمى ، كما نص فى معاهدة سعد آباد التى عقدت فى عام ١٩٣٧ م مع تركيا والعراق وأفغانستان على الاعتراف بالحدود القائمة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية • وعدم الدخول فى أحلاف عسكرية مع القوى الأخرى وحل المشكلات التى تظهر على مسرح الأحداث مستقبلا سلميا •

❊ قامت النهضة الفارسية على أسس مشابهة لما انتهجته تركيا فى مسار نهضتها ولكن لم تستطع التقدم بخطوات سريعة مثل تركيا بسبب اختلاف تكوين الدولة الطاهرى وبسبب ارتباط الشعب الفارسى بالدين والتقاليد ارتباطا وثيقا وعميقا • ورغم هذا فقد وصل الشاه بشعبه الى مرحلة من التقدم لم يصل اليها من قبل قط ، وخاصة فيما يتعلق بمسألة التخلص من النفوذ الأجنبى ، اذ ظلت انجلترا وفرنسا تمليان على فارس — على مدى عدة قرون — انتهاج السياسة التى كانت تحدد مصيرها •

❊ ❊ ❊

٢٣ — مصر أمة حرة :

❊ كان كفاح مصر ضد الحماية البريطانية طويلا ومعقدا ، فقد عارض الشعب المصرى الحماية البريطانية فور اعلانها مباشرة ، فلم يلب نداء التطوع فى الحرب ضد الجيش العثمانى ، فاتخذ الانجليز اجراءات صارمة ، اذ انتزعوا الفلاحين من قراهم تاركين وراءهم أسرا تحتاج الى من يعولها •• ويمضى المؤلف فى سرد أحداث الحرب وموت السلطان ، وعدم استطاعة انجلترا تنفيذ الفكرة التى كانت تراودها ، وهى ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية ، ولذا فقد وافقت على تعيين أحمد فؤاد سلطانا على مصر ، وقيام ثورة ١٩١٩ م واعلان الدستور والملكية ، وتعاقب تشكيل الوزارات المختلفة ، واعلان استقلال مصر فى معاهدة ١٩٣٦ م مع احتفاظ الانجليز بحق مرابطة قواتها فى منطقة قناة السويس • وبين فى معرض حديثه عن المجتمع والأحزاب أن الاختلاف الطبقى فى الحزب الذى قاد البلاد سياسيا كان كبيرا ، فقد ضم الحزب مجموعة من الاقطاعيين والأثرياء بجانب الفقراء المعدمين ، ولم يفكر أعضاء الحزب فى برنامج يقضى على هذه الفوارق

الكبيرة ، ولكن جماعة الاخوان المسلمين هى التى نادت بالاصلاح الاجتماعى القائم على الأسس الاسلامية •

* تبوأ بعض علماء الأزهر مكانة الزعامة الدينية ، فكان ينظر اليهم على أنهم نواب الشعب ، يعبرون عن آماله ، ويرفعون شكواه الى المسئولين ويطالبون بحقوقه وليس هناك شك فى أن مصر تزعمت العالم الاسلامى بعد انهيار الدولة العثمانية ، وأن برامج الاصلاح التى أعلنت — بعد عزل الجيش بقيادة اللواء محمد نجيب الملك فاروق — تقوم فى أغلب بنودها على أفكار الاخوان المسلمين فى مجال تحقيق العدالة الاجتماعية • بين أفراد المجتمع • وهذه عوامل كان لهـا أثر بالغ فى تقوية مركز مصر الاسلامى •

* * *

٢٤ — النضال ضد وصاية القوى العظمى :

*انشغلت كل البلاد العربية فيما بين الحربين العالميتين بمقاومة اقليمية ضـد وصاية القوى العظمى ، فقد فشلت الفكرة الخيالية التى كانت تستهدف قيام دولة عربية كبرى تضم كل المناطق العربية ، على صخرة الواقع السياسى الذى أرغم كل قطر عربى على اتخاذ طريق طويل مختلف عن الآخر ، أدى الى قيام دويلات عربية ، مستقل بعضها عن بعض •

* أخذت سـوريا طريقهـا فى وقت مبكر للتخلص من القيود الأجنبية بعد الحرب مباشرة ، وذلك بتنصيب فيصـل — أحد أبناء الشريف حسين ، أمير مكة — ملكا عليها ولكن قضى على هذه الرغبة بطريقة مهينة ، اذ عندما باشرت فرنسـا حمايتها بعد الحرب مباشرة على سوريا ولبنان ، طردت « الملك » من البلاد • ثم تولت السلطات الفرنسية تسيير شئون الدولة فى ظل الأحكام العرفية التى أعلنت عند اندلاع الحرب ، وبقيت سارية المفعول بعد انتهائها • سارت الأمور سيرا حسنا حتى عام ١٩٢٥ حينما انفجر غضب الشعب فاندلعت الثورة مبتدئة بالقبائل الدرزية ، ثم عمت جميع أنحـاء سوريا ولبنان ولم تستطيع فرنسـا اخمادها الا بعد أن تلقت مسـاعدة من الحلفـاء واستخدمت الطائرات فى قمعها •• ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث ما بعد الثورة حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية وحصول سوريا على الاستقلال الكامل فى عام ١٩٤٦ كذلك تناول — بالتفصيل — المقاومة

الوطنية فى العراق ضد الحماية الانجليزية ، وحصول العراق على استقلاله فى أوائل الثلاثينات ، وقبوله عضوا فى عصبة الأمم المتحدة والامتيازات التى حصلت عليها انجلترا فى العراق أثناء الحرب العالمية الثانية بفضل صداقتهم لنورى السعيد .

* * *

٢٥ ــ فلسطين والجامعة العربية :

* اصطدمت مسألة فلسطين داخل العالم العربى بصخرة عاتية ، فقد تعارض فرض وصاية بريطانيا على هذا البلد ــ وهو عربى بحكم القانون الدولى ــ مع الوعد بانشاء وطن قومى لليهود ، فعلى الرغم من أن وثيقة هذه الوصاية لم تتضمن وعدا باعطاء اليهود حقوقا خاصة ، الا أن الحركة الصهيونية بذلت جهدا كبيرا فى سبيل الوصول الى هدفها ، فحاولت ــ ما أمكنها ــ دفع اليهود المبعثرين فى العالم الى الهجرة الى فلسطين ليكونوا محور وأداة قيام الوطن القومى اليهودى ، ازداد عدد المهاجرين الى فلسطين عاما بعد عام ــ وخاصة بعد ظهور الاتجاه النازى المعادى للسامية ــ فغضب السكان العرب وثارت ثائرتهم . وعندما رفضت سلطات الانتداب فى عام ١٩٣٥ طلبهم وقف هجرة اليهود الى فلسطين أعلنوا الاضراب العام ، وظلت الثورة العارمة متأججة بين صفوف العرب على امتداد ثلاثة أعوام ، فلم يستطع البريطانيون السيطرة على الموقف الا بشق الأنفس . فقد كان الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين هو الزعيم الروحى لهذه الثورة ، استمدوا منه قوتهم واستمرارهم فى مقاومة المخطط الصهيونى وعلى الرغم من نفى الانجليز له خارج البلاد فقد استمرت القلاقل وفشلت جهود بريطانيا فى اقناع الطرفين بقبول مبدأ المصالحة حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية .

* وكانت خيبة الأمل فى السياسة البريطانية فى فلسطين دافعا قويا لانحياز مفتى فلسطين الى جانب هتلر ، ومحاولته تقديم مساعدة لقواته فى شمال أفريقيا ، ولكن انتصار « مونتجمرى » ضيع على المفتى كل أمل كان ينتظره من انتهاج هذه السياسة .

* شغلت الحرب العالمية الثانية القوى العظمى ، فلم تتدخل الحرب العالمية الأولى ، فلم تورط نفسها ، وبريطانيا انشغلت فى فى شئون دول الشرق الا بطريق غير مباشر ، فتركيا تعلمت من درس

البلاد الواقعة تحت سيطرتها بتدريب القوات وارسالها الى جبهات الحرب، وايران — بحكم علاقتها مع روسيا — اضطرت الى السماح بانزال قوات الحلفاء فى أرضها ، ولم يكن لدى العالم وقت يسمح له بالاهتمام بمشاكل العرب الداخلية •

* أعقب الهدوء المفروض بقوة السلاح نشاط كبير نتج عنه قيام « الجامعة العربية » فاختيرت القاهرة مقرا لها ، وكان أعضاؤها فى بدء تكوينها هم : مصر ، وسوريا ، والأردن ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وانضم اليها فيما بعد ليبيا والسودان • وكان الهدف من هذه المنظمة تبادل المساعدات دون المساس بحق استقلال كل قطر عن الآخر ، والعمل المشترك فى مجال الاقتصاد • وهكذا ظهر على المسرح الدولى كتلة دولية ، فهى وان كانت لا تقاس من ناحية القوة بالكتل العالمية الأخرى • الا أن قيامها كان شعلة نشرت ضوءها على العالم العربى والاسلامى : سياسيا وفكريا ، ولعبت دور السند والمعين للمستعمرات الأفريقية فى كفاحها على طريق الاستقلال •

* هذا هو الوجه الخارجى للجامعة العربية ، أما الداخلى فقد دارت فيها بعض مناورات ومصادمات صغيرة فى مجال محاولة فرض الوصاية عليها ، وعند النزاع على مناطق اقليمية ، وازاء المشاكل الاقتصادية ، اذ لم تظهر التناقضات فى مجال النزاع على الحدود أثناء الحكم العثمانى واضحة ولكن بعد سقوط الخلافة ، لم تظهر النزعات القومية الاقليمية فقط ، بل أصبح التفكير فى قيام دويلات مستقل بعضها عن بعض واضحا ، كما ظهرت انقسامات حادة داخل الأقطار بين الشعوب والملوك ، وبين الشعوب والحكومات ، وبين الطوائف المختلفة الآراء والاتجاهات داخل المجتمع الاسلامى •

* نسى العرب خلافاتهم أمام مواجهة العدو المشترك : اسرائيل ، ولكن الجامعة العربية فشلت فى أول امتحان لها فى مجال الصراع العربى الاسرائيلى ، ويرجع فشلها الى عدم الجدية فى مساندة أعضائها بعضهم البعض ، كما يرجع الى الضعف العسكرى اذ بينما كانت تحصل اسرائيل على الأسلحة من كل بلاد العالم — على الرغم من حظر الأمم المتحدة توريد الأسلحة الى المنطقة — اعتمد العرب على أنفسهم فقط فلم يتلقوا مساعدة من أحد ، حتى بريطانيا نفسها ، لم تمد لهم يد المساعدة •

* تسبب الضعف الداخلى والخارجى فى شل حركة الجامعة العربية ؛ فلم تستطع القيام بالدور الذى كان يأمل بعض السياسيين أن تقوم به ؛ غير أن وقوع معظم أعضائها فى القارة الآسيوية ، صنع منهـا ـ ككل ـ أداة ربط فى منظمة الدول « الآفروآسيوية » ولهذا بدت ـ رغم التناقضات الداخلية ـ فى مجال السياسة العالمية ، كما لو كانت قوة ثالثة ؛ تغمز باحدى عينيها للشرق ، وبالأخرى للغرب للحصول على مكاسب من كلتا الناحيتين .

* * *

٢٦ ـ أمل العالم الاسلامى فى عودة مجده العالمى القديم :

* ليس غريبا أن يقابل كل تدخل بشىء من الشك والارتياب ، بعد ما قاست الدول كثيرا من لمتاعب فى سبيل الحصول على استقلالها ، فقد أرادت الدول أن تستقل بتدبير شئونها ، والسيطرة على ما يقوم داخل حدودها من مؤسسات ، ولهذا جاهدت فى سبيل السيطرة على شئون البترول الذى يمثل الانتاج العربى منه ربع انتاج العالم ، كذلك بدا الخطر واضحا من الشرق ، عندما طالب الشعب فى ايران بتأميم البترول اذ كادت الجماهير المنادية باتخاذ هذا الاجراء أن تدفع البلد الى أحضان الوصاية السوفييتية ، لولا أن حالت بريطانيا والولايات المتحدة دون وصول السوفييت الى الغاية التى لم تغمض أعينهم عنها لحظة ، ألا وهى تحقيق أطماع روسيا القديمة فى ايران . كذلك دخلت الولايات المتحدة بعد الحرب بثقلها فى المنطقة ، فقـامت بالدور الذى عجزت بريطانيا عن القيام به ، بعد خروجهـا منهكة من الحرب العالمية الثانية .

* تشير ظواهر الأحداث الى أن لدى مصر أسبابا تدعوها الى الوقوف ضد سياسة الولايات المتحدة ، فهى وان ساعدتها على استعادة قناة السويس الا أنها وقفت أيضا بجانب اسرائيل . ودافعت عنها ، فكانت بمثابة شوكة فى جنب العلاقات مع العالم الغربى . ولهذا فليس غريبا أن ينظر العرب الى كلتا القوتين العالميتين بحذر .. وأن يراقبوا أخطارهما بعين مفتوحة ، ويساوموا للحصول على ما ينفعهم من كلتا القوتين .

* تطمع كل الدول الاسلامية فى الوصـول الى الاسـتقلال الاقتصادى ، وتكوين قوة سياسية تمتد من الشاطىء الشرقى الافريقى حتى الشرق الأقصى ؛ولذا فهى تحتاج الى الخبرة الأجنبية للكشف عن

مواردها الاقتصادية واستغلالها ، وتأمل فى تكوين « كومنولث » اسلامى ، وقد أعلنت عن ذلك مرارا فى مؤتمرات اقتصادية ، عقدت فى كراتشى وطهران واشتركت فيها كل البلاد الاسلامية ، معلنة عزمها وتصميمها على العمل المشترك فى المجال الاقتصادى داخل اطار التعاليم الاسلامية •

* يتجه الترابط الدينى بين الشعوب الاسلامية — داخل اطار التحول الحضارى — الى اعادة المجد العالمى القديم ، فقد ارتفعت أصوات فى آسيا تنادى بتطبيق أحكام القرآن ، ففى باكستان ، تلك الدولة التى أعلنت الاسلام دينا رسميا للدولة يحاول المسلمون تطبيق أحكام القرآن للنهوض بالمجتمع ، فهم يتخذون القرآن أساسا لنهضتهم الحضارية ، كذلك طبعت جماهير الشعب فى اندونيسيا الدولة بطابع اسلامى ، على الرغم من الجهود الجبارة التى تبذلها بعثات التبشير المسيحية فى ظل ضمان حرية العقيدة التى كفلتها الدولة للجميع كما يعيش الناس فى أفغانستان طبقا لتعاليم القرآن فى ظل دولة اسلامية ، حتى فى الفلبين والصين واليابان ، يعيش ملايين المسلمين ، وعلى الرغم من أنهم أقلية ، فهم لا يكفون عن التفكير فى محاولة تطبيق أحكام القرآن — ما أمكن — فى شئون حياتهم •

* انضم شمال أفريقيا الى الجامعة العربية ، وأسهمت دوله فى الحركة الاسلامية الجديدة ، كما يعيش ملايين المسلمين فى أفريقيا السوداء ، ولهم نشاط ملحوظ فى تأييد ودعم الاتجاه الاسلامى • فاذا خرجنا من هذا الحزام الاسلامى فى افريقيا وآسيا قابلنا قوى اسلامية أخرى ، تركها الحكم العثمانى فى دول البلقان : يوغوسلافيا وألبانيا ، وبلغاريا ، واليونان ، اذ يرى المرء معالم الطابع الاسلامى بين شعوب هذه الدول ، وبخاصة يوغوسلافيا ، ويلمس تعلقها عاطفيا بما يجرى فى البلاد الاسلامية كذلك يعيش داخل حدود الاتحاد السوفييتى أكثر من عشرين مليون مسلم ، يمارسون الآن عباداتهم — طبقا لأحدث التقارير — فى هدوء بعد أن اجتازوا مرحلة اضطهاد النظام الشيوعى لهم •

* لا زال الشرق الاسلامى يكون وحدة سياسية وثقافية ودينية ، على الرغم من ظهور الاتجاهات القومية المتعددة فى أقطاره منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اذ يشعر المسلمون أن ترابطهم يتجاوز حدود الدول السياسية ، فالدين — بالنسبة لهم — ليس أمرا شخصيا ذاتيا ،

ينفصل عما عداه من النظم الاجتماعية التى ترتضيها الأغلبية أساسا لحياتها داخل اطار الدولة السياسى ، بل هو القانون الأساسى الذى يشكل كل جوانب حياة المسلمين ، وعليه فمن يتحدث عن روح الاسلام ، فيجب عليه أن يراعى الوحدة الكلية : الروح أو (العقل) والطبيعة أو (الجسم) والثقافة . فحياة المسلمين التى تحكمها التعاليم الدينية تختلف عن حياة الناس خارج المجتمعات الاسلامية ، سواء فى الشرق أم الغرب ، فطبيعة المسلم ترفض المادية المجردة رفضها الانكار وجود الله .

* يتطلب التقدم الحضارى فى هذه البلاد التغلب على عقبات كأداء ، اذ يجب على سكانه أن يسلكوا طريقا آخر فى التنمية غير الطريق الأوروبى ، لأنهم لا يملكون من الصناعات ما يمكنهم من سلوك طريق أوروبا ، وفضلا عن ذلك فهم مشغولون بتغيير نظام الأسرة القديم المتخلف . وتغيير أسلوب الحياة القبلية ، الذى ارتضى الأفراد تقسيمه الاجتماعى على أنه ارادة الله . فليس من السهل ادخال الآلة الحديثة للمساعدة فى اعادة تكوين مجتمع حر ، فقد قامت ثورة فى أفغانستان فى عام ١٩٤٨ لأن بعض النساء خلعن الحجاب ومشين فى الشارع سافرات الوجه .

* لن تدرك الجماهير فى القريب العاجل الملاءمة بين القرآن وبين النظم الحديثة فى مجال العدالة الاجتماعية ، وكذلك بينه وبين بناء الدولة العصرية ، اذ لا يزال الشرق يمر بمرحلة التفاعل والتصدع ، ويجب عليه معالجة التصدع أولا ، فهل سيكون الغرب هو الطبيب المناسب ؟ .

* سوف يجيب المستقبل على هذا السؤال !!!

*** لم يستطع المؤلف التخلص من رواسب الماضى كلية ، فهو وان أشار فى مقدمة الكتاب الى روح التعصب التى سيطرت على البحوث التى كتبت عن الاسلام ، وأنه لن يسير على منهجها ، الا أنه كان يميل فى سرده لتاريخ الاسلام السياسى الى اتخاذ الموقف الأوروبى فى مواجهة الاسلام والمسلمين ، ذلك أن ملامح التوجس والخوف بدت واضحة كلما ظهرت قوة الاسلام كعقيدة على مسرح السياسة الدولية ، فأثبتت الدراسة الاسلامية وجودها فى المناطق التابعة لها اداريا ، وتحكمت فى حركة التجارة العالمية .**

* فاذا ضعف التيار الاسلامى أو اهتز سلطان الدولة ، فلم تستطع السيطرة على مجرى الأحداث دوليا ومحليا ، أرجع ذلك الى التخلف الحضارى الذى كان السبب فيه التمسك بتعاليم الاسلام • غير أن أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية أثبتت أن تخلف دول الشرق لا يرجع الى الاسلام كما تصور ذلك الأوروبيون ، فقد تخلصت تركيا — بايعاز وتخطيط من الغرب — منه ، لتلحق — كما أوهموها — بركب الحضارة الغربية لتكون دولة قوية • ولكنها لا زالت ضعيفة حتى الآن ، فهى تعانى من أزمات اقتصادية مزمنة • ولم ينقذها التطلق بأذيال الغرب ، بل ان الغرب هو الذى امتصها فقد صرح الغربيون أنفسهم بـ « أن تركيا تمر بأزمة اقتصادية لا يعرف أحد كيف تنتهى •• واذا كانت تركيا قد اكتسبت فى النصف الأول من القرن العشرين اسم « رجل أوروبا المريض » •• فانها يمكن أن تسمى الآن بـ « رجل أوروبا المحتضر » •• ويظلم الغرب تركيا حين يرجع حالتها السيئة الى « التخلف » الشرقى •• فالواقع أن ما تعانى منه تركيا فى الواقع هو مرض غربى •• فقد تبعت تركيا بأخلاص أعمى « الوصفات » الغربية للتنمية الاقتصادية فى الثلاثين عاما الماضية ••• والنتيجة : تضخم لا يتوقف (٦٠ ٪ سنويا) ، بطالة (٢٥ ٪) ، أعتماد على استيراد الطاقة (٨٠ ٪) والديون الأجنبية (٧ ر ١٧ مليار دولار) •

* وتحاول تركيا التخلص مثل سمكة وقعت فى شباك الصيادين من رجال البنوك الغربيين ، وخبراء صندوق النقد الدولى ، الذين لا يقبلون سوى الاستسلام بدون قيد أو شرط مهما كانت الخسائر السياسية أو الاجتماعية (١) •

* ولم يتحرر من الفكرة المسيطرة على عقول الأوروبيين ، وهى أن حجاب المرأة عقبة فى طريق التقدم الحضارى ، ولذا يجب التخلص منه •

* ونسى أن هذا ليس أمرا جوهريا فى مجال البحث عن أسباب التخلف فى المجتمعات ، اذ يرجع التخلف فى المقام الأول الى :

---

(١) جريدة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٩٧٩/٨/٧ عن : نيويورك تايمز وفينانشال تايمز •

الاستعباد الفردى والجماعى ٠

* وقد حرمه الاسلام ٠٠

تراخى المجتمعات وكسل أفرادها فى مجال الانتاج ٠

* وقد حث الاسلام على العمل ٠٠

انتشار الاختلاسات فى أموال الدولة ،

* والاسلام يحرم ذلك ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠

* فلو طبق الاسلام كما ينبغى — بعيدا عن التعصب الكهنوتى ، ومحررا من سيطرة أنصاف العلماء والمنافقين على تحديد مفهوم مبادئه التشريعية والتوجيهية — لدفعت عجلة التقدم فى العالم الاسلامى دفعا ، ولرفرف علم الرخاء والعدل الاجتماعى على المسلمين ٠

* * *